نفق من نور

«مجموعة قصصية»

نفق من نور

«مجموعة قصصية»

لبابة الهواري

آفاق للنشر
AAFAQ

آفاق للنشر 2019م

نفق من نور «مجموعة قصصية» / لبابة الهواري

الطبعة الأولى: 1441هـ - 2019م

196ص؛ 14×21سم

ردمك: 0- 277 - 78752 - 1- 978

جميع الحقوق محفوظة للناشر

آفاق للنشر
Tel.:+965 22256141 - Mob.:+965 51000197
P.O.Box: 20585 Safat - Postal Code: 13066 Kuwait
info@aafaq.com.Kw
www.aafaq.com.Kw

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ « فوتوكوبي » أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي آفاق للنشر

الإهـداء

إلى ســـورية.. وطـن يكبـر بقلب لـم يكبـر فيـــه..

شـكـر وتقدير ..

أؤمـن أن النجاحات الحقيقية هي صناعة مشتركة، وأن حرفي إن كُتب له النّشر فهو بجهد مشترك ودعاء (**أمـي وأبـي**) الذي يرافقني كيفما تحركت.. وبدعم أشقائي..

عبادة البعيد القريب

فاطمة القلب الكبير

عروة ركني الرشيد

علا ظلّي الأجمل..

وأبنائي (**رجب وخالد**) شريكا الفرح وكل التفاصيل

وصديقات كنّ معي حرفًا بحرف..

هاديا.. التي أخذت على عاتقها مراجعة ما كتبت وتدقيق الأحداث، وإرشاد بوصلتي كلما ضيعتني الكلمات..

إيمان.. التي قرأت كل محاولات، كل المسودات، والأخطاء، والتغييرات وكانت تؤمن دومًا أنني سأفعلها..

جمان.. حملت معي همّ التدقيق اللغوي والإملائي.. فكانت مستشارًا خاصًا تعيد للحرف اتّزانه..

لهنّ ولكل صديقاتي ولكل من آمن يومًا أنني سأفعلها كل الشكر والتقدير والامتنان.

كلمة

لم أعش بسورية يومًا.. لم أعرف كيف يكون الهواء فيها.. كيف تتنفسنا السماوات هناك.. لكنها عاشت فيّ ثلاثة عقود جعلتني أكتب من بعيد قريب.. أعيش قصص الوداع.. أبكي المعتقلين.. أهدهد أبناء الشهداء.. وأواسي أمهاتهن..

توجعني دمعة المقهور.. وبكاء المستضعف.. وصرخة الأسير.. ونواح الثكلى.. وضعف اليتيم.. وقهر الرجال.

يدميني العجز حين لا أستطيع فعل شيء سوى الكتابة.. ونذرت كتابي الأول خطوة في درب العجز الذي وجدنا أنفسنا فيه في غربتنا..

ما كتبته مستوحى من قصص حقيقية عاش أبطالها أحداث مشابهة.. حاولت أن تصل الأحداث واقعية كما هي.. كما الحقيقة.

لبابـة

الفهـرس

- عبور 13
- على هامش الذّكريات 27
- أمومةٌ على غير موعد 37
- نبضٌ تحت الرّكام 45
- أدرينالين أمومة 51
- برميل 57
- بائع البسكويت 65
- قهر الرّجال 73
- في المعتقل 79
- في انتظار الغياب 85
- كابوس الصّباح 91
- الوداع الأخير 99
- معراج إلى السماء 107

- أمل من رحم الحصار..... 115
- نفق من نور..... 121
- باصات خضراء وانتهت الحكاية..... 139
- مريم..... 157
- 7 دقائق..... 163
- حبّة رمّان..... 173
- كفاح..... 181
- حياة معلّقة..... 195

عـبـور

- قلت لكَ لن أتراجع عن السفر..
- أرجوكِ فكري ما زال لديكِ متسع من الوقت.
- (حازم) تكرمْ عليَّ بإنهاء هذه المكالمة، مللتُ الحديث في الأمر ذاته.
- لكن قرارك يستوجب علينا محاولة ثنيكِ عنه.
- عن أي قرار تتحدث؟ هل جربت أن تعيش في بلد دون أن ترى زوجتك وأولادك لأكثر من سنة؟!

ثم.. كفّ عن النظر من زاويتك، فكروا بي.. أنا زوجة بعيدة عن زوجها منذ شهور طويلة، تربّي أربعة أطفال في بلد لم تهدأ ثورتها يومًا!

بقي حازم صامتًا.. فأكملت قبل أن يحاول الردّ بحجّة أخرى:

- انتبه لنفسك.. أراكِ غدًا في المطار.

وأغلقتُ الهاتف قبل أن أسمع صوته.

***

حازم هو أخي الأصغر، أكبره بثلاثة أعوام وحكايات كثيرة، تجعل فرق أعوامنا كبيرًا، فصغير العائلة يبقى في نظر الجميع صغيرًا.

على مدار عشرة أيام تحاول عائلتي بكل ما مُنحت من طرق تفكير وبكل ما أوتيت من طرق إقناع؛ ثنيي عن قرار سفري لأوروبا بحرًا

عن طريق تركيا، وكانت آخر المحاولات مكالمة حازم السابعة التي أنهيتها قبل قليل، محاولًا التأثير عليّ إذ يعلم جيدًا مكانته عندي، لكن الأمر كان محسومًا، ولم تكن طرق التراجع مفتوحة المعابر!

كنت أعلم أن الفكرة تبدو كجنون نشاهده عبر الشاشات فقط، ولم أتخيل يومًا أن أكون بطلة هذا الجنون وأشارك في صنع الحكاية التي سأجازف من أجلها بكل ما أملك بما في ذلك أطفالي الأربعة..

عقب مكالمة حازم كانت الكلمات تحط بثقلها في الغرفة تزاحم الأوكسجين الذي أتنفسه، لم أطق فعل شيء، الاختناق يحط على خلايا جسدي تدريجيًا، يكتم الأنفاس، صراع الكلمات يتصاعد في عقلي فيما أحاول ضبط إيقاع التوتر، ولئلا أفشل ارتديت ملابسي على عجل، تركت (إباءً) و(تيماً) مع (أنسٍ) ابني الأكبر، وخرجت، كان (محمود) ابني الثاني لا يفارق بيت جدته منذ قررنا السفر، بينما يبقى أنس معي لترتيب أمور المنزل والسفر، وينتبه لإخوته إباء بسنواتها الخمس، وتيم ذي الأشهر التسعة.

لم يُكتب لتيم رؤية أبيه إلا عبر الصور ومكالمات السكايب، فقد مر عام كامل على سفر (عدنان) محاولًا البحث عن سبل للعيش خارج البلد، بعد دخول الثورة عامها الرابع.

كان تيم قد تكوّر في بطني بشهوره السبعة، عانقني عدنان مودّعًا في المطار، والدمع يغسل ما تبقى فينا من ألم. مسحتُ دمعةً فرّت من

طيف عدنان الغائب عني.. وأنا أتنفس خريف البلد لمرة أخيرة، كنت أمشي على غير هدى، لا أقصد وجهة بعينها، أريد احتضان كل شيء بعيني، أريد الاحتفاظ بكل هواء البلد في رئتي، أريد أخذ كلّ من أحب معي!

مساء اليوم التالي كانت العائلة متجمهرة حولنا في المطار، أنا وأطفالي الأربعة، أنس يمسك بيد إباء، وأنا أحمل تيماً، فيما بقي محمود بجانب جده يعانقه، كان المشهد كئيبًا، لم أحب يومًا الوداع، لم أطق رؤية دمع من أحب، حازم وأنس تكاتفا لجعلنا نضحك بإطلاق النكات السخيفة، وحدها الضحكات كانت تخفف توتر ذلك اليوم، كنا ندرك جيدًا أن الوقت يسخر منّا كلما ازددنا ضحكًا، يسحب بقوةٍ الساعات الأخيرة ليذهب بها، وحدنا من قاومنا شعور الرحيل بضحك يخفي دمع العين.. لم أستطع إخفاء نزقي فيما اتخذت من كل ثورات الغضب فرصة لمزيد من الضحكات.

قلتُ بسخرية حين ارتفع نزقي للسقف:

- لست حزينة لأنني سأسافر.. اشتقت لعدنان!

لحظتها فقط سقطنا بالبكاء..

كان فخّ السخرية محكمًا علينا.. عانقت أمي وأبي وبكيت.. همستُ: «لا تصدّقوني، أنا أكذب..»

شدني أبي إليه:

- لا ترحلي

همست وأنا أبتعد ملوحة:

- ليتي أستطيع...

حملنا بقية الحقائب وتوجهنا لبوابة العبور، كانت بوابة الوطن الأخيرة، تلملم ذكريات المغادرين وتحملها لهم في الحقائب، تعطيهم آخر هواء للحنين، وتتركهم مع الدمع طويلًا معانقين ما تبقى.

حين بدأت الطائرة بالتحرك انهمرت من عيني دموع حارة، همست والغصص تملأ القلب: «وداعًا»، أمسك أنسُ يدي، وشدّ عليها، كان أنس صديقي المقرب، ابني الذي يعرف كيف يواسي أمه، همس «عائدون حتمًا» ازداد دمعي حينها.

كنت أعلم أنه الوداع، وأنني حين أغادر سماء هذه المدينة فقد اخترت طريقًا بعيدًا عنها، هذا ليس وداعا مؤقتاً، هذا رحيل، إنه الرحيل يا بنيّ!

بكيتُ للوداع كأنّ روحي تموت.. تسمية الأشياء بأسمائها متعبة، وتضرب بمطرقة من حديد هشاشَتَنا لتتساقط أشلاءً لا نعرف كيف تجمعنا.

روحي تحمل كل الأشياء، تحمل الحكايات التي لا يعرفها أحد، الظلم الذي يدفن بمهل دون أن يكتشفه أحد، القهر الذي يكوي الطبقة الداخلية، الأوراق والمحاكم، الموت وأنّات الناس وأوجاع البلد والقصف المستمر والانتظار، والأحكام الزائفة.. والضحك حدّ البكاء.

روحي تعرف كيف يُولد الأسى وكيف يموت، كيف يُدفن، كيف يخرج من أضيق سنتمتر في القلب وكيف تبدو بعده واعيًا جدًا.. ترى الأشياء بوضوح، بوسخها، بحقيقتها، بعالمها الرثّ.

روحي تعرف كيف تنتحب الأم على ابنها سنينًا، وعلى زوجها الذي قضى، وعلى قوّتها التي تتسرب من يدها كما الزمن دون أن تقدر على إيقاف شيء منهما.. لا أدري كم استمر الوقت بالنحيب! لكنني نمت دون أن أشعر لأستيقظ لحظة الهبوط، كأن الله أراد الرحمة بي في هذه الرحلة الموجعة.

تذكرت من جديد هدفي، دعوتُ: اللهم لمّ شمل عائلتي.. عدنان بانتظارنا في قاعة الترانزيت لنكمل برحلة داخلية إلى أزمير..

كان اللقاء مهيبًا، الكل ينادي «بابا» وهو يعانق الجميع ويبكي، تيم فقط تمسّك بي، وبقيتُ على بعد خطوتين، تتابع دموعي إيقاعها الذي لم يتوقف، اقترب مني عدنان، عانقني، تنفسته كأني لم أستنشق

أوكسجينًا لعام، كان بكائي يزداد وتيرة بدل أن يهدأ، شدّني إليه، قبّل رأسي ثم همس: «سيكون كل شيء بخير..»

بين انتظارٍ وطريق.. وصلنا غرفةَ الفندق في أزمير بعد عشر ساعات، تساقط الأطفال نائمين من أثر السفر، وجلسنا أنا وعدنان كغريبين/ قريبين.

كان الوجع باديًا على وجوهنا، مكالمات السكايب لم تظهر لي الشيب الذي غزا شعره، ولا تفاصيل الأيام التي تركت أثرها أرقًا تحت عينيه.. أنا أيضًا شِخْتُ فجأة هذا العام، كان وجهي باهتًا، عيناي متورمتان، والبكاء يسبق الحروف.

- نادمة؟
- لا أبدًا.. متعبة فقط.

لم أشأ أن أحمّل عدنان همًا جديدًا، لم أشأ أن يعرف الفراغ الذي خلفته سورية فيّ حين غادرتُها..

تبادلنا بعض الأحاديث عن الطريقة التي سنسافر فيها، وما حدث مع قريبي الذي يرتب الرحلة والتفاصيل الأخرى.. ثم غلبني النوم.

صباح اليوم التالي أخبرنا عدنان أنه تواصل مع المهرّب، وأن السفر سيكون ليلًا، تجادلت طويلًا معه، كنت أخاف الليل، لم أكن أرغب في

خوض مغامرة مرعبة بكل التفاصيل، بعد دقائق أقنعني عدنان أن الليل أفضل لنا حتى لا نضطر للعودة مع خفر السواحل في النهار!

في العاشرة مساءً انطلقنا، معنا أخف الأمتعة، والأطفال، لم نكن نعلم سوى اسم منطقة أعطاها المهرب لزوجي لنذهب إليها ويكون التحرك من هناك..

عبر سيارة أجرة انطلقنا باتجاه المكان المرتقب، وحين وصلنا كان المكان معتمًا مخيفًا، ولا ملامح لأي شيء من حولنا.

بقينا ننتظر، ثم جاءت حافلة صغيرة، بلا نوافذ من الخلف، وطلبوا منا الركوب فيها، فركبنا، مشت الحافلة قليلًا ثم توقفت ليصعد أناس آخرون، وهكذا بدأوا بتجميعنا، امتلأت الحافلة من الخلف وما زال السائق يمشي قليلًا، ويتوقف ليصعد آخرون، والجميع متجه لنفس الهدف، بدأت الأعداد تتزايد، ولم يكن هناك مكان لأحد، والأطفال يصرخون، فيما اختنقنا من قلة الهواء، كان الصراخ والضرب على النافذة التي تفصلنا عن السائق لا يهدأ، نكاد نموت من كثرة الراكبين وقلة الهواء، وهو لا يلتفت لأحد.. ثلاث ساعات مرت قبل أن يتوقف ونبدأ باستنشاق الهواء!

وصلنا للشاطئ حيث كان (البلم) ينتظرنا، كنت خائفة.. نظرت لعدنان، وقلت:

- لا أريد هذا القارب لا يحمينا، سنغرق!
- لا مجال للعودة..
- لا أريد، أرجوك.. دعنا نعود!

تمالك عدنان أعصابه في الوقت الذي بدأت فيه أفقد أعصابي، اقترب مني مهدّئًا وهمس: «لا أحد يعرف الطريق، لن نستطيع العودة كما ترين، ثلاث ساعات مرّت من تلك النقطة.. كيف سنعود؟»

على مضضٍ ارتديتُ سترة النجاة وتأكّدت أنّ أولادي يرتدونها، وبدأنا نصعد للبلم، كنا سبعين شخصًا بين رجال ونساء وأطفال، وربّان البلم شخص سوري من مدينة ساحلية، مما بعث الاطمئنان في نفوسنا، ابن البحر سيوصلنا، لكن من مأمنه يؤتى الحذر؛ تاه ابن البحر في البحر، وغدره الموج فلم يعد يعرف جهة ولا طريق، وبقينا في عرض البحر أربع ساعات، معلقين في السواد، الأطفال يبكون، وتيم على مقدمتهم لم يهدأ لحظة، الرعب دبّ في النفوس، وبدأت المياه بالتسرب للبلم، الخوف يعّمنا، وعدنان يحاول تهدأتنا، الماء يلامس أطرافنا ويزاحمنا في البلم الذي بدأ بالترنح في عرض البحر، نداءات استغاثة بدأت تضج في المكان..

الرعب وصراخ الأطفال، والضياع، والغرق، لا أحد سواه يسمعك الكل ينادي: «يا الله.. يا الله»

أنس ومحمود خلعوا أحذيتهم مثل باقي الركاب وبدؤوا بمحاولة تفريغ البلم من الماء بالأحذية، ثم طلبوا منا رمي كل ما نحمله وتخفيف الأمتعة والملابس والأحذية، فيما حاول آخرون مع عدنان الاتصال بخفر السواحل وطلب النجدة..

الكل يستجيب للمطالب دون نقاش، أرواحنا معلقة بين الأزرقين، والسواد يبتلعنا، أصوات الشهادة تتردد على أذنك بين الثانية والأخرى.

تشبثت بعدنان وتشبث الأطفال بي، والماء يعانقنا جميعًا، وأنا أرتجف وأنادي يا الله، لمحتُ دموع عدنان لحظتها، كان هو القوة التي أستند إليها، حينها انهارت قواي، وأدركت أننا سنكون شهداء الغرق، نطقت بالشهادة والتزمت الصمت ومناجاة الله..

لا أدري كم مرّ من الوقت قبل أن نلمح خفر السواحل، عاد الأمل للنفوس وبدأت التكبيرات تعلو مع الدموع، أنقذنا خفر السواحل ونُقِلنا لفرعٍ للشرطة، لنبقى فيه ليلة كاملة قبل أن يتركونا ونعود..

خرجنا بعد أن سمحوا لنا كالمشردين، بلا أحذية ولا أمتعة نمشي في الشوارع نبحث عن أي مكان لشراء أحذية، لشراء طعام، لأيّ شيء يسد الرمق ويعيد لوجوهنا الحياة، كنت قد احتفظت بحقيبتي أثناء رمي الأشياء، بها نقودنا والجوازات وأهم الأوراق..

عدنا مرة أخرى للفندق، لنخطط من جديد، من حسن الحظ أن قريبي كان قد اشترط على المهرب عدم تسليمه النقود حتى نصل لضفاف اليونان.. ولأنّ المهرب أخلف، كان قريبي ما زال يحتفظ بالثمن الباهظ الذي يأخذه المهرّب أجرةً عن كلّ شخص يعبر، وهو ما يقارب ألف يورو!

هذه المرة.. احتاج الأمر عشرة أيام للحصول على مهرّب آخر، ولنشترط السفر نهارًا..

خرجنا في منتصف الليل لنصل لنقطة التجمع، حين وصلنا كانت النقطة مقبرة!!

رعب عظيم تسرّب لقلبي وأنا أراني أمشي بين القبور في الليل! احتاج الأمر عدة ساعات قبل أن يتجمع المسافرون وتبدأ رحلة الانتقال للنقطة الساحلية، هذه المرة كان الانتقال عبر شاحنة مغطاة..

نظرت كمن يتوقع الموت، عدنان كان يعرف أنني لن أستطيع الركوب من الخلف مهما حدث، بدأ يفاوضهم على ركوبي مع إباء وتيم في مقصورة السائق، ويبقى هو ومحمود وأنس في الخلف، طال النقاش وتوصلوا في النهاية لأن ندفع مبلغًا إضافيًا مقابل ركوبي بجانب المهرب وسائق الشاحنة وشخص آخر، مع ابني تيم فقط، ويعود البقية للخلف..

وافق عدنان، وبقيت أنا خائفة، إباء صغيرة لن تستطيع احتمال الشاحنة، عدنان حملها على كتفه لتبقى في الأعلى وصعد بها مع الأطفال، فيما ركبت مع تيم من الأمام..

هذه المرة تمكن الخوف مني بطريقة ثانية، وجدتني وحدي بعيدة عن أطفالي وزوجي، لا أعرف ماذا يحدث لهم في هذه الشاحنة الضخمة مع كل المسافرين الذي ركبوا، وجدتني ضائعة خائفة مرة أخرى، دعائي لا ينقطع.. وقلبي لا يهدأ، ظننت أني لن أراهم ثانية، أن رحلة التشرّد بلا عائلة قد بدأت..

بعد خمس ساعات توقف الشاحنة لنصل للشاطئ، بدأت أبحث عنهم بين المسافرين لأجدهم كالخارجين من الموت ولا أعرف حينها أنهم قضوا الساعات الخمس واقفين على قدم واحدة بسبب ضيق الأماكن!

كان الصباح قد تسرب للبحر ليطمئن القلوب التي هدّها الرعب طوال الليل، بعد ساعات انتظار طويلة، أتى دورنا على متن بلم من جديد، تذكرت مشهد الغرق.. الماء المتسرب.. ارتجاف أطفالي.. الرعب الذي عشته. تشاجرت مع عدنان.. وركبتُ على خوف ومضض، أعانق كل شيء، أودّع حياتي، وأهلي وكل الناس.

أردّد الأدعية وأنادي بقلب متعب «يا الله»..

هاج الموج في وجوهنا، وبدأ البلم بالترنح، ساعة ونصف في عرض البحر، يضربنا الموج، والماء المالح يقتص من جراحنا ما شاء، معلقين باللاشيء، الرعب رفيق الدرب، والقلوب بلغت الحناجر.. وظننا بالله النجاة..

ساعة ونصف قبل أن نلمح اليابسة ليتحول الخوف لفرح عارم..

حين لامست أقدامنا اليابسة بدأ الناس يصرخون من الفرح ويضحكون ويعانقون بعضهم مهنئين، وحدي جلست أبكي على اليابسة، وحدي جلست أنتحب، وحدي لا أعرف الفرح..

اقترب عدنان مني:

- وصلنا.. الحمد لله على سلامتك.. وصلنا أخيرًا وصلنا!

لاح أمامي بلم آخر يقترب، التفتُّ إليه وقلتُ وأنا أشير:

- مجانين! ما الذي يجعلهم يأتون، قل لهم ليعودوا!

ضحك عدنان:

- قبل دقائق كنتِ مكانهم.. قبل دقائق فقط!
- أعرف.. أنا مجنونة أن فعلتها.. أنا مجنونة حين خضتُ رحلة الموت!

عانقني عدنان وهو يضحك.. فيما امتلأت بالبكاء.. لنبدأ رحلتنا في أوروبا.

على هامش الذكريات

عندما علمت بخروجه بقيت مصراً على لقائه، نصحني (عزام) كثيراً بالتّراجع، أو الانتظار، لكني لم آبه له، كنت مشتاقاً جداً لأي أحد من رائحة الوطن.. بل من رائحة أمّي.. فكيف إذا كان القادم (حسن)؛ صديق الطّفولة ورفيق الثّورة والنّضال، وأخي الذي لم تلده أمّي.

كنّا ثلاثة: أنا وحسن ومحمد، جمعتنا حارةٌ واحدة، وصحبة أهل، ورفقة مدرسة، كبرنا معًا في مدرسة الحي، وتشاركنا كل المشاغبات سوياً.. كانت ضحكاتنا تتعالى كلما ازددنا شغباً ونحن موقنون بعقابٍ لا مفرّ منه، حتى العقاب حين يقسم على ثلاثة يكون جميلاً له طعم الصّداقة.

ما أزال أذكر عندما كسر محمد الكرسيّ في الصّفّ العاشر، وغضب منه المعلّم وأراد معاقبته؛ فاتّقنا أنا وحسن على مشاركته العقوبة باعترافنا أننا من ساعدناه بكسر الكرسيّ، أراد محمد أن ينفي كلامنا لكن حسن داس على قدمه فصرخ فجأة، وضحكنا فكانت عقوبتنا مضاعفة يومها، قمنا بتنظيف الصّف بمقاعده كلها.

وفي الجامعة تقاسمنا الهندسات على أنواعها لننتج جيلاً بارعاً كما كان يصفنا عزام كلما رآنا مع بعضنا:

(المهندسون الثلاثة، صانعو الأجيال البارعة).

لكنّنا لم نكن نعلم أن هندسة الأجيال ستتحوّل لهندسة ثورة.. وسيكون نضالنا ثلاثيًا مشتركًا ندفع ثمنه دمًا وعذابًا ووجعًا.. وتشردًا.

شهور مضت على خروجي من سورية هاربًا من بطش الأسد ومطاردة زبانيته، مطاردة تكون نهايتها سجناً وموتاً محتّماً تحت التّعذيب.

قطع ذكرياتي عزّام وأنا أرتدي ملابسي استعدادًا للقاء حسن..

- أرجوك انتظر.. أعطه بعض الوقت حتّى يرتاح من عناء السّفر.. تعلم أنّه لم يمضِ وقت طويل على خروجه من المعتقل.
- عزّام لا تحاول.. سأراه اليوم..

صمت عزّام قليلاً ثم قال وهو ينظر للأرض:

- أريد أن أخبرك أمراً.. حسن ليس بوعيه.
- كفّ عن الكلام الفارغ.. سيعود لوعيه عند رؤيتي

قلتها، وأنا أغلق باب المنزل.. مسرعاً الخطى إليه.

كيف لا يكون بوعيه؟! وهو الشاب العشريني الذي يزن عقله عقل جيل بأكمله، ويسند الشباب من حوله بكلماته وابتسامته؟!

كان حسن أكثرنا اتزانًا في كلامه، وأصدقنا تنبّؤاً. يخيّل إليّ أنه من جينات لم تعد تتكاثر في أيامنا هذه، فمن يجمع رزانة العقل والحكمة والصّبر والتريّث والحلم والمعاملة بالحسنى لم يعد له أثر في عالمنا، باستثناء حسن.

حاولت جاهداً أن أطرد أفكار عزام عني؛ حتى لا أصاب بإحباط، كنت فقط أريد رؤية حسن، أريد معانقته.. أريد إنهاء وحدة قاتلة في أرض غريبة.

الشارع الطويل يبتلع السيارات، وأنا أغوص بين المارّين أبحث عن سيارة أجرة تقودني إليه، الطريق ليس طويًلا.. ربّما ساعة إن كان السائق حذقًا، ويستطيع عبور الأزمة وقت الذروة دون انتظار، وربّما ساعتان إن كان السائق أخرقًا! في أسوأ الأحوال سأصل بعد ساعتين.. سأكون عنده في الثالثة.. قلتها وأنا أشير لأول سيّارة أجرة فارغة أراها تمرّ، توقّف سائقها بجانبي..

- أين؟
- الوحدات.. (وأعطيت السّائق ورقة بها العنوان..)

توسّمتُ الخير في السائق، وسألته وأنا أنظر للساعة:

- كم نحتاج من الوقت؟
- لربما ساعة ونصف..

صمتُّ على مضضٍ، وبقيت أتأمل من النافذة الطرقَ التي تبتلعنا أو نبتلعها عنوة..

كل ما أذكره عن حسن يمرّ الآن أمامي، أرتّب ألف سيناريو للقاء:

«سأرنّ الجرس وأختفي ثم أظهر له فجأة.. لا لا.. ما هذه السخافة لم آتي لأخيفه»

«سأمثّل أنني ساعي البريد وأريد تسليمه رسالة».. كفّ عن السّخافة.. لن يهتم لشيء، من خرج من الموت لا تعنيه تفاصيل الحياة!

لا يهم، لا يهم.. سأعانقه، سأقبّله، سأبكي معه، سأقول له كلّ شيء.. كلّ شيء عما فعلوه في غيابه وما فعلناه نحن أيضًا.

حين توقفتْ سيارة الأجرة، أشار السائق لرقم العمارة التي توقف عندها، وقال:

- هذا العنوان المكتوب هنا..

شكرتُ السائق، وأعطيته أجرته وترجلت.

كانت عمارة سكنية عالية، على وجهها علامات شيخوخة واضحة..

سقط جزء من دهانها بفعل الزمن.. والجزء الآخر ما زال يتحدّى الحرّ والبرد على مدار العام!

تنفستُ بعمقٍ، وأنا أقرع باب الشقة التي يسكنها حسن مع أقربائه.

وبتوتر كنت أمشي أمام الباب جيئة وذهاباً في الممر الممتد بين الشقتين، لم تكن مساحته تتجاوز المترين، لكنه كان يحوي كلّ هموم الانتظار.. دقيقة مرت وأنا انتظر..

فُتح الباب.. كان رجلاً خمسينياً، ملامح الوقار بادية على لحيته البيضاء، مربوع القامة، بعينيه الغائرتين هموم وطن، وبيده المرتعشة آثار مرض واضحة..

ابتسم وهو يقول:

- تفضل
- أريد مقابلة حسن..

دعاني للدخول، وهو يشير لحجرة على يمين الباب..

«يبدو أنها حجرة حسن أو التي يقيم فيها» تمتمتُ وأنا أرى حقيبة سفرٍ وملابس تعلوها، حذاء رياضي وُضع بجانب الحقيبة.

في منتصف الغرفة كانت ثلاث كراسٍ بلاستيكية تحتل المكان مع طاولة وُضع عليها دفتر وبضعة أقلام، خمّنت أنها أدواته.. إذ يعشق كتابة يومياته.. وعلى الجانب الآخر من الحجرة بساط مهترئ مع وسادتين مربّعتين..

هببتُ واقفاً متجهاً نحو الباب وأنا أراه يدخل الحجرة.. اقتربت أريد عناقه.. كان ينظر إليّ باستغراب، حاولتُ استيعاب الصّدمة.. قلت وأنا أعانقه:

- أنا عمر، صديقك عمر..

حاول حسن مبادلتي العناق بمجاملة واضحة، ثم ابتعد عني قليلاً ونظر لوجهي متأملاً، وقال بحماس:

- عمر.. عمر فؤاد صحيح؟ عمر ومحمد وأنا..

قلت بفرح طفوليّ:

- نعم أنا هو..

هجم عليّ بعناق طويل جعل الدموع تنذرف بدون موعد.. ثم ابتعد فجأة أيضاً وقال:

- أين محمد؟ لماذا لم يأت معك؟

لوهلةٍ ظننت أنّه لا يعرف ما حدث لمحمد، تجاهلت سؤاله وبادرته بالسؤال:

- كيف حالك؟ أخبرني عنك متى أتيت إلى هنا؟ (وأمسكته من يديه ليجلس بجانبي).

تذكرتُ كلام عزام عن ذاكرته.. شعرت ببعض التوجس وأنا استمع لحديثه.

لم يكن حسن بوعيه أبداً.. كان يضحك على غير موعد وبلا سبب، ينظر للأرض لدقائق ثم تتناثر دموعه على خديه كمن تذكر شيئاً..

يقطع الحديث ليتحدث عن أشياء لا علاقة لها بما نتكلم، يهذي ببعض الكلمات غير المفهومة، يخلط بين الأحداث والتّفاصيل.

كان قلبي ينفطر عليه، وأنا أراه بهذه الحال.. حاولتُ أن أتحدّث بأشياء بعيدة عن الثّورة، بدأت أحدثه عن هذا البلد وعن تجربة النزوح، وسردتُ له بعض المواقف المضحكة، كان حسن ينظر للنافذة بنظرات بعيدة ثاقبة بعينيه الواسعتين..

قاطعني فجأة:

- لِمَ لمْ تحضر محمد معك؟ ولماذا لم يأتِ؟

قبل أن أحاول الرد على سؤاله المباغت، أكمل:

- هو وعدني بالقدوم، عندما عاد من جولة التحقيق الأخيرة، كانت الدماء تغطي وجهه الأبيض.. آثار السياط مزقت أقدامه، كل ما فيه كان ينزف، رموه كقطعة قماش بالية أمام الباب..

سحبته، وأنا أبكي أسندت رأسه على فخذي، بتثاقل رفع يده المليئة بالحروق ومسح دمعي وهو يهمس بصعوبة:
«لا تبكِ.. إياك أن تضعف، النّصر لنا.. هو ليس أكثر من جسد يحاولون تمزيقه.. لكن روحنا حرّة». كانت الآهات تخرج من كلماته، كنت أشعر باقتراب رحيله، أشار لي بعينيه لأقترب منه..
اقتربت فهمس: «أبلغ سلامي لأهلي.. ولخطيبتي.. أخبرهم أنني ما لنت ولا ضعفت.. وأنني أحبهم.. أيضاً سلامي للجميل عمر.. أخبره أننا سنلتقي».
صمت قليلاً، وأنا أسمع أنفاسه المتلاحقة، بدأ يتمتم بالشهادة.. عانقته بقوة وأنا أصرخ: أرجوك لا ترحل.. أرجوووك..

يكمل حسن وهو يمسح دموعاً خطت درباً على وجهه:

- شعرت بجسده المنهك وهو يضطرب وروحه تصعد للسماء، كانت ابتسامته تختصر كل الحكاية..

صمتَ..

وصمتنا جميعًا إلا من بكاء ودموع لم تنته.. ودّعته على عجل أغلقت الباب خلفي وانهرت باكياً على باب المنزل.

أمومة على غير موعد

مشاغب كغيره من الأطفال، لم يغفر له سوى ذكائه المُتَّقِد دوماً، لا أستطيعُ طرحَ سؤالٍ كاملٍ إلاَّ ويكون الجواب قد فرَّ من شفتيه، يتبعه بإغلاق فمه بأصابعه العشرة ناظراً للأرض إذ يُدرك جيداً عقوبة المنع عن التحدث لخمس دقائق لمن يجيب بغير دوره، حركته تلك كانت تجعلني أضحك رغماً عني وأغفر له خطأه، كنت أتصنّع الغضب مع ابتسامةٍ يلمح طيفها وأنا أحاول تأنيبه، أو حتى رميه بنظرة عتاب يستقبلها بضحكةٍ من خلف الأصابع البريئة.

هذا كان حال اليوم بطوله مع (زيد)، طفلٌ يجعل من خيمة التعليم مكاناً شهياً للتعلم بذكائه وفطنته وسرعة بديهته، بشرة حنطية بشعر كستنائي ناعم مستدير، وعيون عسلية ناعسة، تختفي حين تظهر غمازاته بابتسامة ممتدة أو ضحكة مفاجأة، يصبح أشبه بطفل صيني، يعطيني شغفًا كل يوم لأجدد الأمل في نفوس الأطفال الذين عكفت على تدرسيهم تطوعًا في هذا الصيف.

أردت تقاسم المعاناة معهم، وإمدادهم بالكثير مما أملك، لربما نستطيع لحاق بعض الدمار الذي تراكم في روحهم، لربما نستطيع صنع المستقبل بيد من خسر كل شيء.

من الخليج قدمت، معي خبرة عشر سنوات تدريسية، وكتب وقصص وكثير من التجارب، ومعي عشق للطفولة جعل إجازتي تتمحور حول هذا الخيمة.

لم يكن طريق الدخول للمخيم باسم معلمة سهلًا، إذ كان من الصّعب على من يقطن هناك تحمّل اقتراب غريب، اضطررت للتطوّع مع منظمة مسؤولة عن إمداد المخيم بالمعونات المادّيّة لأستطيع تدريس الأبناء دون اعتراض الأهالي.

أصل للمخيم صباحًا، فسكني قريب جدًا يقع في البلدة القريبة من المخيم.. والتي سُمّي المخيم باسمها، معي جدول اليوم كاملًا، نبدأ عادة بالروتين الصباحي، قراءة للقرآن بداية الجدول، حصة اللغة العربية، ساعة للدعم النفسي غالباً ما نتبادل فيها القصص، نصف ساعة استراحة، نعود بعدها للرياضيات، والعلوم، نصف ساعة استراحة أخرى يتخللها وقت غداء، ثم لغة إنجليزية، وقصص وخبرات.. هكذا يمضي جدولي كل يوم لينتهي اليوم في خيمة التعليم، ثم أخرج أتمشى بين الخيم قليلًا أتعرّف على الأمهات، من أجبرتهن الظروف للعيش تحت رقعة قماش لا تقي من حر ولا من برد، معظمهن أرامل لشهداء، أو زوجات لمعتقلين، قسم منهنّ يعشن مع أزواجهن في هذا المخيم ويشتكين من وجود الزوج أيضًا. أستمع لأحاديثهن، أشاركهنّ التعب، لساعتين أو ثلاث، أعلم يقينًا أنني لا أقدم الحلول لهنّ، ولا أستطيع رفع التعب عن ظهورهنّ، لكنّ مشاركة الحمل مع الآخرين مريحة قليلًا، وهذا ما أفعله، وأعود لمنزلي أكتب ما مر بي، وأحضر لليوم التالي بكامل الشغف والألم سويًا.

عندما أتيتُ إلى المخيم صباح اليوم التالي، وجدت زيدًا يجلس عند باب خيمة التعليم أو المدرسة كما يحلو للأطفال تسميتها، كان يقلّب التراب بعود خشبي يشبه غصناً صغيراً، ابتسمت له وأنا أقترب منه:

- زيد ألن تدخل؟ حان موعد الدرس.

لم يجب زيد، توقفت وانحنيت ليصبح وجهي مقابلًا لوجهه، لكنه ابتعد للخلف قليلاً..

- زيد ما بك؟

أشاح بوجهه وهو يقول:

- لا شيء.

حاولت إدارة وجهه إليَّ لأكلّمه، لكنه أبعد يدي بعصبيةٍ وهو يقول:

- اتركيني!
- كما تريد (تمتمت بها).

جلست بجانبه، وأمسكت غصناً آخر كان مرمياً على الأرض وأخذت أقلب التراب مثله دون أن أنبس ببنت شفه.

- ألن تبدئي الدرس؟
- ما رأيك أن أؤجل الدرس اليوم؟

هزَّ برأسه مؤيداً ولم يتكلم. بقينا هكذا لدقائق أختلس النظر لوجهه الذي يُشِيْحُه كلما لمح نظرتي، ونقلّب التراب..

قلت بدون سابق إنذار:

- أمس كان يوماً متعباً، عملت كثيراً، وسهرت في المنزل لوقتٍ متأخر وأنا أكتب، ثم اتصلت أختي لمدة ساعتين.. وكان عليّ تنظيف المنزل والغسيل.

ارتفعت عينا زيد إليّ بنظرة حزن وشفقة على حالي، وبقي صامتاً، أكملتُ:

- ولم أستطع النوم أيضاً.

بقي صامتاً كما هو لا يحركه شيء.

حاولت الاسترسال بالشكوى؛ لكني وجدت الأمرَ غير مجدٍ، عدت لصمتي، ليقطعه هو بقوله:

- ضربتْني!!

حاولت ضبط انفعالي لأسأله بهدوء:

- من؟
- أمي.
- ربما فعلتَ شيئاً خاطئاً.

- يدها كانت قوية.. خدي يؤلمني..

وضع يده على خده، فوضعت يدي على يده، واقتربتُ منه

- أنا أحبها.. لكنها تضربني

ضممتُه وأنا أقول:

- سأذهب معك لأكلّمها.
- ربما تضربك أنت أيضاً.

ابتسمت وأنا أطمئنه:

- لا تخف.. سيكون كل شيء بخير.

تسربت ابتسامة لوجهه فقلت على عجل:

- ما رأيك أن نبدأ الدرس؟ هيا للخيمة.

قضينا وقتاً جيداً بقية اليوم، كنت أحاول إعادة زيد للدرس كلما لاحظت شروده.

في نهاية الحصة اقترب مني، ليتأكد من نيّتي الذهابَ معه. ربّتُّ على كتفه، وأنا أضع حقيبتي على كتفي، وأمسكت بيده ليدلني على خيمته. مشينا في المخيم، كانت الخيم على مد البصر تتصل مع الأفق، هنا حيث المكانُ أشبه بالخط الفاصل بين الحياة والممات.

دخلنا الخيمة، كانت ضيقةً، فيها فراشان جارت عليهما أمطار الشتاء، بعض الملابس المعلّقة على حبلٍ من أول الخيمة لآخرها، امرأة في أواخر الثلاثين وربما أكثر، في وجهها من الهموم ما يكفي وطنًا! بيدها طفل صغير لم يكمل أشهره الستة، وفي زاوية الخيمة طفلان آخران بعمر زيد، ربما أصغر قليلاً، يلعبان بعلبة مياهٍ معدنية فارغة بديلاً من الكرة!

عندما رأت المرأة زيداً معي ظهر عليها بعض الارتباك، قبل أن أبادرها السلام قالت:

- لابد أن هذا المشاغب تسبب بمشاكل جديدة.

ابتسمت، وأنا أنظر لزيد:

- زيد.. اذهب والعب مع إخوتك

نظر إليّ نظرة امتنانٍ وركض باتجاه زاوية الخيمة، مددت يدي مصافحةً المرأة ومعرفةً عن نفسي:

- أنا معلمة زيد.
- أهلا بك تفضلي.. (وأشارت للفراش الممدود على الأرض).

جلستُ بجانبها، سَحَبَتْ وعاءً يشبه القدر ووضعت فيه الطفل الذي كان في يدها، تملكتني الدهشة مما رأيت!! حاولتْ تبرير فعلها:

- لا يوجد مكان آمن أضعه فيه وكما ترين لدي ثلاثة أطفال، وأنا بمفردي هنا، وليكتمل النحس فتحوا باب الخيمة ودفعوا لي بهذا الطفل الذي لا أعرف عنه شيئاً - مشيرة لزيد - وليس له عملٌ سوى معاندتي والمشاغبة، كلما وضعت الولد في القدر قام بقلبه، مما يدفعني لضربه! أين أذهب بالأولاد أو به؟!!

قاطعتها:

- حقيقةً هذا ما أتيت من أجله.

أكملت بسخرية:

- بإمكانك أخذه إذا كنت خائفةً عليه، المكان لا يتسع لأطفالي ليتسع لطفلٍ غريب!

صَمَتَتْ وصَمَتُّ، وبقينا لدقائق، قمت من مكاني باتجاه زيد، قبلتُه، ثم نظرت إليه وأنا عند باب الخيمة:

- سيكون ابني.. قريباً.

نبض تحت الركام

كان علينا أن نستمر بالبحث بين الأنقاض.. لا ملامح حياة بين أكوام المباني المهدّمة.

بصيص أمل يحرك الجميع ويدفعنا للاستمرار.. أصوات تكبير بين الحين والآخر.. وجماعات من الشباب تحيط بنا.. أصوات أخرى تطالب الشباب الذين لا عمل لهم بالرجوع قليلاً إلى الخلف.

نداءات كثيرة تتناهى لمسمعي.. لم يكن لدي الوقت لأرى أصحابَها.. كل ما فيّ يضج بالدعاء صمتاً «يا رب يكونوا عايشين». أزداد حماساً لفكرة الحياة.. أزيد من سرعتي في الحفر بأصابعي التي ما عدتُ أشعر بها.

كنا أربعة أو خمسة.. لا أذكر.. أبناء حي واحد.. جمعنا هدف العثور على نبض بين الحجارة! بأيادينا نتناوب على الحفر بين الأنقاض، فالأصابع حنونة إن عثرت على الأجساد الطريّة، لذلك كنّا نتجنّب استخدام أدوات الحفر المختلفة، إلا عند الضرورة، مع الانتباه الشديد.

مرت دقائق.. ساعات.. لا أعرف.. لا أذكر.. توقّف الزّمن عند اللّحظة التي بدأنا فيها البحث.. عند اللحظة التي سمعنا فيها دوي الانفجار.

- الأطفال بالبيت.

الصرخة التي جعلتنا نتحرك باتجاه الرّكام المتكوّم عقب برميل أصاب الحي بزلزال عنيف!

- أطفال يا ربي.. أطفال!

يعترضنا حجر كبير.. أزيل الرمال من حوله.. نتعاون على إخراجه ليأخذه أحدهم بعيداً

أتابع وكثير من الأفكار تنتابني.. «أيعيش طفل سقط عليه حجر بحجم الذي أخرجنا؟»

ألمس شيئاً طرياً أتحسس.. هناك نبض

أرفع رأسي لأعلى وأصرخ بصوت للسماء تكبيـــــر.. تكبيـــــر

تتعالى التكبيرات.. الجميع يتابعون بحماس أكبر.

يندفع شابان آخران ليشاركانا الحفر، أسمع الشباب يصرخون

- «عايش.. عايش».

أصوات التكبير تختلط بالشهادة.. استطعنا رؤية اليد كاملة.. طرف الوجه أصبح ظاهراً أيضاً.

نتابع بحماس وحذر شديدين..

الكل ينبّهنا «شوي شوي» حرصاً على الطفل الذي لم نر ملامحه بعد..

- على مهلك.. على مهلك

رجل أربعيني يحذّر الشاب الذي بدأ بمحاولة سحب الطفل.

صوت مخنوق بعبرة بكاء يصلنا «يا الله»، أرددها في قلبي مراراً وأنا أحفر حول الطفل..

ظهر الرأس أخيرًا.. تبين أنها طفلة.. ازدادت التكبيرات علواً وحماساً.

أحفر بيد وباليد الأخرى أمسح على صدر ووجه الصغيرة.. يطلب مني أحدهم أن أبقي رأسها مرفوعاً لضمان وصول الأوكسجين لها.. أستمر بتدليك صدرها.. يا الله لا تحرمها الحياة

ساعة هي الأطول.. الجسد النحيل تحت الركام.. أرجلها عالقة..

نتناوب على إمساك الطفلة والحفر، كلٌّ يحاول، تستمر المحاولات

أسمع أحدهم يقول «العامود»، لا بد من استخدام المعول..

يطلب مني شاب أن أمسك الطفلة بيدي ويحاول إبعاد العامود الذي يبدو ثابتاً على أقادمها.. ضربة ضربتين.. ثلاثًا بدأ يتزحزح

استطعنا بعدها سحب رجلها.. بقيت الأخرى عالقة.

عدنا للحفر بأيدينا.

رعب أصاب الطفلة من الموقف.. بدأت تئن بصوت خفيف..

- «لا تخافي عمو.. لا تخافي.. عطونا مي، شباب»

بكل هدوء مسحت على وجهها بقليل من الماء.. محاولاً طمأنتها، يا رب يسّر.

بقيت قدمها فقط عالقة

- «الدرج على رجلها».

قالها شاب بينما الآخرون يحاول زحزحته.. أمسك بالطفلة أكثر.. أسحبها بهدوء.. قليلاً قليلاً..

- «طلعت»

قلتُها، وعلت التكبيرات..

سلمتها لطاقم الإسعاف المنتظر، الأب يمسك يدها يعانقها وهي بيد المسعف..

يتركها له ويعود لينتظر خروج بقية أطفاله

- «البقية يا الله (يقولها وهو عائد للركام..)»

والشباب في الأعلى يبحثون..

فيما لحقت المسعف.. قبّلت يد الطفلة..

ووقعت على ركبتيّ.. يخنقني دمعي والأمل.

أدرينالين أمومة

- ماما.. ماما

فتحت عينيها، أغمضتهما من جديد..

تردّد الصوت مرة أخرى

فركتْ عينيها.. وأعادت فتحهما لتتأكد من مكان وجودها..

السقف العفن، رائحة النّتانة المنبعثة من الجدران، آثار دماء من رحل، فتحة التهوية في الزاوية اليمنى.

الكتابات، ذكريات من مرّوا هنا..

شدّت البطانية لتغطي رأسها وتكوّرت حول نفسها محاولة العودة للنوم، الكل نائم، أو يمثل النوم، ما زال الليل بأوله، أو هكذا يبدو!

عاد الصوت مرة أخرى

- ماما.. ماما

هبّت واقفة، تلفت يمنة ويسرة.

لا يمكن أن يكون هنا..

تلفّتت من جديد، صديقاتها نائمات، الوجوه مسترخية، وضحكات الحرس الروتينية في الخارج لا تنبئ بجديد..

بدأ الصوت يعلو في أذنها كأنه يقترب منها، ومع تردد الحرفين يرتفع أدرينالين الأمومة لديها.. الشيء الوحيد الذي كانت تمنع نفسها من التفكير فيه منذ أول يوم لها تحت الأرض!

كانت فوق الأرض، بين الجمع تمشي وتردد: «الله، سورية، حرية وبس..» كانت هناك، تؤمن أنها بين الجموع ليكون هو بخير، حين وضعته بيد أمها قبل نزولها للمظاهرة عانقته طويلًا، أمها أيضًا لم تكن تعرف أنها تنوي فعل شيء، ظنت أنها ذاهبة للسوق كما أخبرتها..

حين سمعت الأم بخبر المظاهرة اتصلت على ابنتها، لم ترد.. لم يكن صوت رنين الهاتف يُسمع مع رنين الحناجر الصادقة..

تستودع طفلها قلبها، ويد أمها، وتردد بكل قوة «الله، سورية، حرية وبس»

وفي لحظة كان كل شيء يتفرق، والجيش يطوق الجميع، وبين فوق الأرض وتحت الأرض مسافة ليست بالكبيرة، لكن الوقت يتوقف تمامًا..

يتواطأ بشدّة مع الحدث.. ويدوّن لك كل ما تودّ تدوينه.

- ماما

أمسكت رأسها بيديها وأغمضت عينيها وهي تردّد:

- هو بخير..

وكلما ردّدتها ارتفع صوت ابنها في أذنها يناديها ردّدت هي:

- هو بخير.

أدخلت سبابتيها في الأذنين، شدّت على عينيها وصوتها يئنّ بهمس:

- بخير.. هو بخير.

لكنّ الصوت داخلها لم يخبُ.. وصوتها يختنق في جوفها يتحوّل لبكاء متهدّج وشهقاتٍ مكتومة، استيقظت أم محمد على اختناق الدمع، اقتربت منها، وهي تسمّي عليها بالرحمن، ظنّت أنها رأت حلمًا مزعجًا، همست لها:

- استعيذي بالله من الشيطان الرجيم..

لكن عاطفتها كانت تزداد تأجّجاً، أحد لا يعلم الصراع الذي كانت تعيشه بين قلب وعقل وأدرينالين أمومة لا يرحم..

رغم كل محاولات أم محمد إلا أن سداً منيعاً كان يقف بينها وبين سماع الكلمات، فلم تكن تسمع إلا صوت ابنها يناديها

للحظة خطر ببالها أن تناديه.. ربما يكون حاضراً فيها:

- أويس
- ماما
- أويس

- ماما.. ماما

وتكرر الصدى.. لم تعد تستطيع تحمل الموقف أخذت تضغط على رأسها بيديها تحاول إيقاف الصوت، أرادت تفجير هذا الصوت القادر على قتلها.. أو تفجير عقلها العاجز عن إسكاته.

أم محمد تريدها أن تهدأ قبل أن يسمع أحد الجلادين في الخارج صوت أنينها فيأتون لضربها.

حاولت وضع يديها على فمها، دفن رأسها في حجرها..

كل المحاولات بدت تائهة في الهواء العفن.. مبدّدة مع صوت الأقدام وصراخ مع مسبات وشتم..

فُتح الباب.. وسحبوها، أغلقوا الباب، وسمعوها.. صوت الضرّبات وصراخها:

- أويس.. أويس

لم يكن الوقت ليؤثر عليها.. طال أم قصر.. فلا أحد يعلم كم مضى حتى خارتْ قواها ومات صوتها، وسقط جسدها المنهك، معلناً هزيمته في أول مواجهة مع الأمومة.

أويس ابن السنتين.. غائبة عنه منذ أشهر، لأول مرة تستيقظ على صوته كما كان يفعل كل صباح.

لم تكن كل القوة التي تحملها بداخلها لتحتمل صوت طفل فقد أمّه منذ أشهر.. وأنين أمومة مخنوقة بين جدران معتقل لا يرحم، كان على جبل الصمود أن ينهار.

بعد ساعات كان كل شيء يعود إلى طبيعته.. فتحوا الباب ورموها، يكاد وجهها يختفي من الدماء.. وحين أنّت من جديد.. سمعوها تقول:

- أويس.. ماما.

برميل

في الشارع ينتظر..

يلتهم سيجارته التهاماً، وهو يراقب المروحية تحلق فوقهم..

- أأكون التالي؟..

يقف على ناصية الطريق.. تنخفض المروحية أكثر..

يخطر بباله: «لو أنها تصطدم بأحد المباني فيموت حرقاً طيارها الحاقد.. ماذا لو اصطدمت ولم يمت واستطعنا الإمساك به؟!»

يبتسم للفكرة ويتخيل طيار المروحية بين يديه، تتكوّر قبضته لا إرادياً ويضرب الهواءَ، يرفع قدمه ويركل ركلة أقوى.. يرفع يده في الهواء كأنه يمسك الطيّار من ياقته، يضغط على أسنانه وهو يقول:

- «والله لأطحنك متل ما طحنت الناس بالبراميل..»

يستفيق على ضحك (أبو عبدو)، صاحب الدكّان في الشارع الذي يسكنه، يصل لمسمعه:

- «لا حول ولا قوة إلا بالله.. الناس عم تتخانق مع حالها..»

يبتسم له.. يأخذ نفساً عميقاً من سيجارته، يتابع مراقبة الطائرة..

يتخيل لو أن معه سلاحاً مضاداً للطيران، يرفع يده كمن يمسك القاذف على كتفه يثبته بإحكام.. يغلق عينه اليسرى ويركز باليمنى على المروحية: «الله أكبر!» ويطلق.. «تفجّرت.. ألف قطعة في الهواء..»

يبتسم لنصر يتمنّى تحقيقه.. يتأمل أصابعه يغلق يده ويبسطها.. هذه عدة الحفر التي سيستخدمها بعد قليل..

يقطع تفكيره حين يرى البرميل بدأ بالسقوط الحرّ فوق المدينة..

يقدّر المكان الذي سينزل فيه.

يرمي عقب سيجارته ويطلق للريح ساقيه ليصل المكانَ المطلوب.

يدوي الانفجار..

ويطير من مكانه..

يرتطم بالأرض.. «آآآه» صرخة بسيطة يطلقها.. يستدير على جنبه.. بعض الخدوش في يده.. يحاول النهوض.. ما زال قادراً على الوقوف.. يتابع الركض..

أخيراً يصل..

الدخان يغطي كل شيء..

أصوات صراخ.. تكبيرات.. ورجال الحي يتجمعون..

غبار أبيض يغطي كل شيء.. اكتست رؤوس الناس بالبياض.. كشيب غطّى تفاصيل المكان..

ملامحهم مختفية خلف طبقة الرماد التي غطّت كلّ شيء..

عند البيت الذي سقط عليه البرميل، وقفت مجموعة من الرجال يصرخ أحدهم:

- «بيت أبو محمد.. فيه 7 أطفال وأمهم..»

رجل أربعيني يوجه كلامه لابنه الشاب:

- «بسرعة جيب شراشف وتعا..»

يغيب الشاب لدقائق، ويقترب الجميع من الأنقاض..

يصل لمسمعهم أنين خافت..

- «بسرعة شباب.. في حدا عايش.. في صوت..»

تعلو التكبيرات..

يعود الشاب معه الشراشف.. يفرشها على الأرض..

يبدأ الجميع بالتقاط الأشلاء المتناثرة بين الركام..

يمسك الشاب بقدم طفل.. يصرخ بأعلى صوته..

- «شباب هون في طفل.. هي رجلو..»

يهرع إليه شابّان ليزيلا حجراً كبيراً يمنعهم من رؤية بقية الطفل..

- «ضل ماسك برجلو.. وحاول تسحبا شوي شوي»

يقولها شاب يحاول رفع الحجر للأعلى، ارتفع الحجر..

يسحب الآخر القدم قليلاً قليلاً..

يعلو التكبير، تحرك الحجر بالكامل.. لكن لا شيء.. هي فقط أشلاء قدم مقطوعة لطفل..

يلفّهم الصمت للحظات.. يزداد التكبير

- «الله أكبر.. الله أكبر.. كملوا شباب كملوا..»

يمسك الشاب بالقدم ويضعها على الشرشف الذي امتلأ ببقايا قطع لحم صغيرة وبعض الأطراف..

يعود ليكمل..

مر وقت ليس بالقليل، ولم يخرج سوى أشلاء.. كلما عثروا على جزء وضعوه على الشراشف..

يأتي من بعيد شاب على مشارف العشرين، يقترب وهو ينادي بأسماء...

- محمد.. مايا.. أحمد...

يوجه كلامه إليهم..

- «طلع حدا عايش؟..»

قبل أن يتلقى الجواب.. يرى الشراشف الممتزجة بأشلائهم ودمائهم.. يسقط على ركبتيه..

يصرخ:

- «أكيد في حدا لسا عايش...»

بيديه كما الجميع ينكب على الركام.. يقطع صوت التكبيرات صوتُه وهو ينادي إخوته..

يبتعد قليلاً وهو يمسك يداً، ويصرخ:

- «لا ياموووووو... لا ترحلي معهم أرجوكِ.. سأكون يدك.. قدمك.. كل الأشياء. لا ترحلي»

أترك البحث وأقترب منه

- «طول بالك.. يمكن مو إيدها..»

وبين الذهول والدمع والصراخ.. وفمه الذي انكبّ تلقائيا على اليد يقبّلها، يشير للخاتم في اليد المقطوعة التي ميّزها.. أجلسه على طرف الطريق بعيدًا عن شرشف الأشلاء..

- «ماء يا شباب.. عطونا ماء!»

يصل الماء ليدي أقربه منه.. يتركني ويزحف للشرشف يضع اليد مع بقية الأشلاء.. ويجلس بجانبها

ينظر للناس المتجمهرين حول الركام يقول بيأس

- «بس تطالعوهم قولولي..»

يقلب الأشلاء، يعد من ماتوا.. يتمتم بالأسماء..

يصرخ تارة يبكي تارة.. ويصمت تارات أخرى.. يستخرج سيجارة من جيبه وينفث وجعاً وقهراً.. وذهولاً..

نعود لمتابعة البحث..

ثم يصمُّ الآذان صوت انفجارٍ آخر وهزة تشبه الزلازل..

دخان أبيض غطانا.. وشيء قاسٍ ارتطم برأسي..

غدا كل شيء أبيض.. وبدأت الأصوات تخفت قليلاً قليلاً.. وتلاشى كل شيء..

بياض عمّ المكان.. وخدر أصاب أطرافي..

ربما هي القيامة!..

بائع البسكويت

يجلس على حافة الطريق بعد أن أضناه المشي بين الطرقات باحثاً عن مشترٍ لبضاعته.. يتأمل الصندوق الذي ما زال ممتلئاً إلا من بعض القطع التي باعها.

يدخل يده في جيبه متحسساً النقود؛

منتصف النهار.. والنقود قليلة!

يتقدم نحوه طفل في السادسة، وطفلة أكبر قليلاً.. يحملان ذات الملامح التي تتفق مع ملامحه.. لكأنها توأم ثلاثي لولا فارق العمر.. عيون لوزية وشفاه تكتنز دفء الابتسامة، وذقن يزيد الوجه حسناً.

يبتسم لهما ويشير بيده ليجلسا.

تسأله الطفلة:

- ما الأخبار؟ (وعيناها تحدِّقان بالصندوق الممتلئ).

تجيب دون أن تنتظر منه إجابة:

- لم تبع شيئاً!!

يبعد الصندوق عنها، ينظر بحزم لها:

- ضحى! ما زال اليوم في أوّله!

ثم يتابع وهو يقلّب النظر بينها وبين الطفل الواقف:

- إياكم أن تخبروا أمي بشيء..

ويكمل:

- سأعود في المساء ومعي كل النقود، لا تخافـا.. هيا عودا للمنزل.

تخرج البنت من جيبها كعكة صغيرة تعطيها له وهي تقول:

- أحضرت لك هذه..

يأخذها بابتسامة امتنان.. ويبدأ بقضمها وهما يغيبان أمام عينيه.

يستعيد طاقته من جديد ويعود لينادي على «بسكويته» المعلب وهو يتجول بين الناس، وكلما رأى أحداً؛ راح يرجوه أن يشتري منه. اعتاد أن يُقابَل تارة بابتسامة، وتارة بصراخ، وتارة بنصائح عن عمله، يتقبّل كل شيء برحابة صدر مقابل القطعة النقدية التي ستوضع بيده، ليس مهماً ما يسمعه من أجلها، وليس مهماً ما يقوله ليأخذها، فهو يعرف جيداً معنى أن يعود للمنزل مساءً بلا نقود.. ولا معيل آخر غيره!

ساعات أخرى تمضي ولا يزال في الصندوق أكثر من نصف القطع، يمر من أمام بائع الخضروات في الحي، يسمع صوته وهو يناديه:

- ألم تنتهِ من عملك اليوم؟

يبتسم وهو يجيب:

- ليس بعد.. هل تشتري قطعة؟

يضحك وهو يقول:

- أعطيني اثنتين، ستصبح تاجراً عظيماً عندما تكبر.

يرد مصطفى بثقة:

- بالتأكيد. وسيكون دكاني بجانبك
- الله يرزقك رزقاً من عنده.

يودعه مصطفى شاكرًا لطفه وحسن تعامله مستأذناً ليكمل مشواره اليومي. يبدو أنه لن يعود للمنزل إلا مساءً اليوم.

يجلس ثانية على حافة الطريق بعد ساعات من التجوال، يسمع صوتها آتية:

- أبو صطيف.. أبو صطيف.
- لماذا أتيتِ؟
- سيأتي إلينا أبناء خالتك أم عاطف بعد المغرب.
- ربما لن أستطيع الحضور..

أجابها وهو ينظر لصندوق البسكويت الذي لا تزال نصف قطعه مرصوصة بجانب بعضها.

ربتت على كتفه وهي تقول:

- لا تقلق.. لن نفعل شيئاً مهماً.

ابتسم بصمت متأملاً الأرض أمامه.

بدأ يعيد ترتيب قطع البسكويت في العلبة وهو يقول:

- أتعلمين.. لن يدوم الحال هكذا.. خلال شهرين من الآن سيكون عندي «بسطة».

فتحت ضحى عينيها في دهشة:

- ومن أين لك بالنقود؟

أجاب بشيء من الأمل:

- وعدني محمد بمساعدتي.
- من محمد؟
- الشاب الذي يقوم بالتصوير دائمًا.. قام بتصويرنا في الأسبوع الماضي عندما كنا جالسين.
- نعم نعم تذكرته..

صمتَتَ، ثم أردفَت:

- بماذا وعدك؟
- وعدني أن يساعدني لتصبح لدي بسطة حتى لا أضطر للتجوال كل يوم.

ثم أكمل وهو ينظر في عينها:

- لن أبيع فقط البسكويت، بل سيكون هناك الكثير من الأشياء.

أبعد صندوق البسكويت الذي كان يقبع بينه وبين أخته ليرسم على الأرض بإصبعه مستطيلاً، وهو يقول:

- انظري.. هكذا شكل البسطة سيكون، سأضع البسكويت بهذه الجهة وفي الجهة الأخرى سأبيع بعض الشوكولاه، وفي الأمام أضع بعض الخضروات..

تسأله ضحى بترقّب:

- هل ستسمح لي بالجلوس معك على البسطة؟

يبتسم ويجيب:

- بالتأكيد.. هي لنا كلنا..

يكمل بحماس :

- وبعد ذلك يصبح لدينا الكثير من النقود، وتصبح البسطة أكبر.. ثم يصبح لدينا دكان..

يقطع حديثه وهو يقول:

- انظري هناك (ويشير بيده لدكان أبي أحمد بائع الخضار) هل ترين دكان أبي أحمد؟

تهز رأسها بالموافقة.. يكمل:

- بجانبه سيكون دكاني، وسيكون كبيراً، وسأبيع فيه كل شيء نحتاجه.

ويكملان حديثهما بأحلام طفولية لا تنتهي، عن أنواع وأصناف الأشياء التي سيبيعونها، ومن سيكون مديراً للمكان، يقطع حديثهما ضحكة أو نظرة غاضبة لشيء لم يتفقا عليه، أو صمتٍ لمتابعة الأحلام.. تودّعه ضحى لتعود للمنزل ويقوم هو ليتابع عمله.

في هذا اليوم نسي مصطفى مراقبة السماء كما اعتاد ليتجنب البراميل، حتى لا تصيبه لعنتها، بقي يتجول منادياً على قطع البسكويت..

وفي لحظة فقدان للحلم كان البرميل أقرب.. وأسرع من ساقيه الطفوليتين اللتان اعتادتا السباق مع البراميل..

كان الزمن أضيق من أن يتيح له فرصة لأحلامه.. لكنه أتاح له فرجاً تتسع له السماء، تاركاً لضحى فرصة لإتمام الحلم.

مهداة لروح الطفل مصطفى عرب.. بائع البسكويت الذي استشهد في حلب بحي بستان القصر نتيجة براميل الموت!

قهر الرجال

ما إن استقر في مكانه في (المكروباص) حتى تفقّد هويته للمرة الثالثة منذ خروجه من المنزل، هو ليس مهووساً بهويته، وليس مصاباً بداء النسيان، لكن هويته أحد أسباب بقائه على قيد الحياة في بلده.

يعرف جيداً أنه سيقطع عدة حواجز قبل وصوله المكانَ المقصود، وأول سؤال سيلقاه هو (أين الهوية؟) متبعاً بكم لا بأس به من الشتائم بحسب العسكري الذي يتفقد الهويات.

محاولاً كسر الملل والانتظار أخرج هاتفه الذكي وأخذ يتفقد حسابه.

كان عليه أن يتأكد من إغلاقه لحسابه المعارض والذي يكتب فيه بنَفَس ثوريّ صادق، ويفتح حسابه الموالي الذي أبعده عن كل السياسة ليكون نوعاً من التمويه في حال تم اعتقاله على أحد الحواجز، كما كان يتوقع بكل وقت.

قلب بعض منشورات الأصدقاء، بعض الصفحات الموالية، منشورات تتحدث عن سيادته.. أخرى عن بطولات حماة الديار

ثالثة عن أسماء راعية الأيتام

كان يضع لايكًا دون أن يدقق فيما يقرأ، كثير من القرف والاشمئزاز اعتلى وجهه.

فتح نافذة لمنشور جديد على صفحته وكتب: «في الشام يصطف الياسمين لتحية الأطفال، كل الجمال بين حارات الوطن، لا شيء يحدث في المدينة، كل التفاصيل القديمة متجددة، هنـــا الحيـــاة».

ضغط على أيقونة النشر ونظر للنافذة، كان الميكرو يبطئ من سرعته قليلاً قليلاً فقد أصبحوا على مقربة من الحاجز.

بعض التململ بدا على الرجال الجالسين أمامه، فيما علا صوت طفل في الخلف.

أعاد هاتفه لجيبه، وأخرج محفظته استعداداً.

توقف المكرو، اقترب أحد العساكر من السائق فيما فتح آخر الباب صرخ السائق بالجميع:

- «طلعوا الهويات شباب»

ضحك العسكري وهو ينظر بالجالسين ويقول:

- «وين الرجال، ما في رجال لشوف الهواوي»

كان محمد يفتح محفظته ويستخرج هويته متجاهلاً الإهانة التي سمعها، متذكراً أن كثيراً من الأشياء التي يجب عليه فعلها غير الرد على عسكري قد يدفع حياته ثمناً له. صرخ به العسكري:

- «ولاه.. لا تكون مفكر حالك رجّال»

صمت محمد، وتوقف عن الحركة فيما كانت أصابعه تضغط على هويته

نادى العسكري زميله، وهو يضحك ساخراً

- «تعال شوف.. آل في رجال هون»

اقترب العسكري الآخر من الباب حيث يقف زميله:

- «هذا الولد؟»

يسأل العسكري الثاني بسخرية وهو يضحك.

يجيبه الأول:

- «لك أي.. آل طالع هويته.»

محمد يحاول تجاهل ما يسمع.. يمنع نفسه من الاستجابة لاستفزازهم.. يحاول تذكر وجوهَ أطفال الميتم الذين ينتظرونه، وجهَ أمه التي كواها غياب أخيه، أصدقاءَه الذين كانوا يعلمون بعضهم طرق المحافظة على الهدوء، سحب شهيقاً عميقاً، وأطلقه ببطء شديد.

أعاده من شروده صوت العسكري:

- «ما سمعت ولاه»

محمد:

- «عفواً يا سيدي ما سمعت»

العسكري:

- «ولد وأطرش كمان»

قهقه الاثنان، وبقي الترقب بادياً على كل من في المكرو

- «ضب هويتك ضب، ما بنشوف هواوي ولاد»

واختلط صوت ضحك العسكريين بصوت إغلاق باب المكرو

انطلق السائق حذراً، وتنهيدات الارتياح بدت على الوجوه..

وحده لم يكن يشعر بما حوله، كانت نظراته تمتد للأفق،

لم يكن يرى أو يسمع شيئاً مما يدور حوله

فتح هاتفه وعدّل على المنشور السابق:

«**هنـــا الحياة.. لكنه قهر الرجال يا أبي**».

في المعتقل

لم أكن أشعر بتحرّكِ عقارب الساعة وأنا أنتظر عودتها، قبل ربع ساعة طلبها الضابط لجولة تحقيق في منتصف الليل!

كنا نعرف السناريو جيداً؛ بل ونحفظه جميعاً! كانت كل صنوف التعذيب والضرب خلال النّهار أهون ألف مرة من جولة تحقيق ليلية!

وحيدة إلا من كل خوف ورعب ووجع، بين جدران باردة سوداء دامية، أمللم جسدي الموجوع من شبح النّهار وأبكي بصمتٍ قبل عودتها، لأكون قوية لدقائق أسند كتفها حين عودتها..

جلستُ أستجمعُ بعض عبارات المواساة وتخفيف الألم التي نتبادلها في تلك المواقف، حتى لا أنساها كعادتي لهول ما أرى حين يفتح الباب ويُلقى بها..

سحبت أقدامي بتثاقل، محاولةٍ إبقاء الألم ساكِنًا، لكنّ خلايا الجسم اختزلت ما يكفي لأئنّ بصوت مكتوم بقيت آثاره انفعالًا على وجهي، تكورّت على نفسي وأنا أجلس القرفصاء، ذراعيَّ تشدُّ على بطني وأهز رأسي بتوتر وأنا أردد في قلبي:

- الفرَج قريب، الفرج قريب..

أرقب بعض الجرذان وهي تعبث بالبطانية الملقاة على الأرض، لشدة توتري وخوفي وشعوري بتشنج أعضائي أعجز حتى عن إصدار صوت يخيفها فترحل.

أسندت ظهري للجدار بصمت مرة أخرى، دمعة صادقة مع مناجاة.. يااارب..

شيء من قلبي كان يخرج معها، شيء من روحي كان يخرج خارج أسوار المعتقل، يلحق بالسماء، يداهمني وجهُ أمي عندما أخذوني أمامها، دمعُها، توسلاتُها، رجاؤها لهم أن يتركوني، البيت الذي تكسّرت كل أشيائه، أبي الذي ضربوه بسلاحهم لأنه حاول التوسل لأحدهم، القهر في عينيه..

أخي الذي كان ينزف ووجه ملتصق بزجاج السيارة، الصراخ الذي عمّ الحي، الضرب الذي تلقيته عندما رموني داخل السيارة، الرعب الذي أحدثه الموقف، كل الأشياء تأتي بشكل مفاجئ..

كنتُ قد انقطعت عن حيّنا لأكثر من شهرين بعد معرفتي بأنهم يريدون مني مراجعة الفرع، انقطعت عن العمل، وبلغني خبر فصلي من الفرع ذاته، تخفيت بعيدًا عن الأنظار، وبقيت أعمل على إسعاف الجرحى في المشفى الميداني، كانت تلك مهمتي منذ اليوم الأول، بعد مرور شهرين من الغياب قررت الذهاب لرؤية أمي، حاول من حولي منعي، طلبوا مني البقاء، قلت بابتسامة:

- لن يحدث شيء، ساعة وأعود.

كنت في قرارة نفسي أعلم أن عملي لا يتطلب هذا الخوف ولا الرعب، وأنني طوال تلك المدة؛ كل ما قمت به هو إسعاف الجرحى لا أكثر.. وهذا ما كان يبعث الاطمئنان في نفسي.

وصلت إلى منزل العائلة في السادسة، طرقت الباب ليفتحه أبي، انكببت على يده أقبلها، وأعانقه، بدمع وشوق وفقد، صوت أمي من الداخل يسأل عن الطارق، وحين لمحتْني كان عناقها أشد وقعًا..

كانت الساعة الأجمل في سنواتي الأخيرة، كنت كمن عاد من سفره بعد طول غياب، ولم أكن أعلم أن الساعة التالية ستكون الساعة الأكثر مرارة ووجعًا وقهرًا.. لكنها كانت!

في السابعة سمعنا طرق الباب بقوة، قبل وصول أبي إليه كانت عناصر المخابرات تداهم المنزل وصراخهم: «أين الإرهابية» يتردد بشكل مجنونٍ، تجمّدت في مكاني، وبقيت واقفة.. لثوان معدودة وكنت بين أيدهم أتلقى الصفعات، دقائق أخرى.. كان المنزل أشبه بساحة حرب.. ساعة هي الأمَّر في العمر كله.

تسعة أشهر مرت على ذلك اليوم، مسلسل الرعب لم ينته لحظة اعتقالي، بل بدأ بشكل دموي حينها، ولم أكن بمفردي، الظلم كان موزعًا على كل من حواه المعتقل، تقاسمنا الجوع والوجع.. وعتمة الليل.. أنات السياط.. وجولات التحقيق.. وتفاصيل صغيرة لا يدركها إلا من سكن هنا..

دموعي لم تتوقف ورغبة جامحة باحتضان أمي الآن.

أتذكر بعض وسائل التخفيف من التوتر، أحاول أخذ نفس عميق، تتسرب لرئتي رائحة العفن العالق في الزنزانة، أحاول جاهدة أن أخرج زفيراً متمهلاً على مراحل، يخرج الهواء، ويعلق العفن بالذاكرة.

لا أدري كم مرَّ من الوقت وأنا على هذه الحال.. دقائق.. ثوانٍ.. ساعات.. لم أكن أشعر بشيء.. كان دهراً من الانتظار..

أردد بخفقان أكبر يااااارب، يااارب، يختنق الصوت في صدري وأنا أسمع وقع أقدام يقترب، وقفت بسرعة بجانب باب الزنزانة أنتظر..

فتحَ الباب ورمى بها للداخل مع سيل من الألفاظ النتنة مثل رائحته، ثم أغلق الباب ومضى.

اقتربتُ منها على عجل، كان جسدها يفضح ما حدث معها، آثار الدماء على وجهها، وانتفاخ في رقبتها، ثوبها الممزق وذراعها المتورمة، لم أكن بحاجة لأسألها كم عانت، احتفظت بالسؤال لنفسي، ساعدتها على النهوض وأسندتها إلى الحائط، جلست بجانبها، كان الذهول مسيطرًا عليها، ملامحها جامدة لا تتحرك، لم تكن تبكي، ولم تتحدث، كان صمتها أقوى وقعاً من عتمة الليل في زنزانة لا ترحم..

استجمعت قوتي لأبدأ عبارات المواساة، أسندتْ رأسها على كتفي وهَمَسَتْ: «أريد أمي..»

شعرت بدموعها وهي تبلل ملابسي، كنت أمسح على رأسها ونتقاسم الدمع، كان القمر يرقبنا من بعيد، لكن السماء شاركتنا البكاء!

كانت ليلة!

في انتظار الغياب

«القصة مبنية على تفاصيل واقعية حصلت وتحصل يومياً في سورية»

كان عليه أن يتسلل بخفة ليصل إلى بيته خلسة قبل الفجر، يقطع الحارات، ويراوغ القناص المترقب على ناصية الشارع بذكاء، يخفي ملامح وجهه بلثامه الذي اعتاد لباسه حين يقرر الاقتراب من حيهم، وبسبب دقة الوضع وصعوبة الحركة..

اضطر نضال القدوم وحده هذه المرة على غير عادته، ضارباً بعرض الحائط كل الأخبار التي سمعها في الأيام الماضية عن تكثيف المراقبة في هذا الحي..

ساعة وبضع أنفاس انتظار قضاها حتى استطاع طرق الباب بطرقات خفيفة اعتادت أمه سماعها لتعرف أنه الطارق..

قبلات وأحضان وكثير من الشوق ودموع العتب طغت على الدقائق الأولى لدخوله المنزل.. وبعد ساعة من جلوسه مع أمه، يعطيها أخبار أسابيع من الانقطاع، يأخذ منها جرعات حنان ويطفئ شوق ليال من الحصار تحت النار..

ذهب لأخته، أيقظها ليودّعها، كانت تفرك عينيها بأصابعها الصغيرة وهي تظن أنها تحلم به:

- نـ.. ـضـ.. ـال.. نضال

ابتسم وهو يمسك بوجهها:

- نعم نضال..

ارتمت في حضنه وهي تضرب على كتفه وتقول:

- لا تغب مرة أخرى.. لا تغب مرة أخرى..

وهو يتلقى ضرباتها ضاحكاً ويقول لها:

- كفى يا شقية..

جلس معها يستمع لأحاديثها الطفولية عن المدرسة والأطفال، ومظاهرات الساحة وابن الجيران الذي استشهد، والكثير من الأخبار التي جمعتْها بسنواتها التسعة.. وعند اقتراب الفجر بدأت لحظات الوداع القاتلة، اقترب منها كعادته، بدأ بتوصيتها بأمه وجيرانه، بدراستها وكتبها، أمسكت بيده، ونظرت في عينيه، قالت بجدية:

- هل ستتركنا وترحل؟

ابتسم وقال:

- حتى إن رحلت سأكون هنا أراك في كل وقت..
- وماذا أفعل عندما أريد أن أحدثك؟
- ستكتبين لي رسائل وتعلقينها على حائط غرفتي، وأنا سأقرؤها.

ابتسمت وكأنها عثرت على الحل.. عانقتْه:

- اتفقنا..

لحظات الوداع دوماً منهكة بكل الأوجاع والألم، نفس المراسم تتكرر كل مرة، غادر المنزل بسرعة ولم يعطِ نفسه فرصة تأمّل وجه أمه والغصّة تأكل قلبها، كان يريد الخروج بسرعة قبل أن يضعف قلبه.

وبذات الحرص كان يغادر، لكن يد القدر وعين القناص المترقبة خلف فوهة البندقية كانت أسرع إليه من حرصه.. رصاصة مع أذان الفجر تستقر في قلبه وابتسامة نصرٍ على وجه مع صعود روحه إلى باريها..

شهر مضى على الحادثة.. كانت الصدمة تسيطر على أخته طوال تلك الأيام..

كمن يحاول استيعاب خبر أكبر منه بكثير، صباح اليوم الثلاثين تذكرت كلماته حين قال لها:

- اكتبي لي..

أمسكت قلمها وورقة وبدأت تكتب له:

- حبيبي نضال.. مرّ شهر على غيابك، اشتقت لك كثيراً، أمي تقول أنك تراني من السماء وأن علي أن أبتسم دائماً حتى لا تراني حزينة، سامحني حبيبي؛ لا أستطيع أن أكتب لك دون أن أبكي، أرجوك عد إلينا كما كنت تأتي بين فترة وأخرى.. فقط لدقائق..

تركت القلم وذهبت لغرفة أخيها.. وعلقت الرسالة في منتصف الحائط.. وعادت لغرفتها جلست في الزاوية غطت رأسها بذراعيها حتى لا يراها نضال من السماء، وانتحبت كما لم تفعل من قبل..

يوماً بعد يوم، كانت تكتب له وتلصق الرسائل على الحائط، تحدثه عن كل شيء.. عن أخبار العائلة، وما فعلته مع الدراسة، وأخبار المظاهرات التي تسمع بها من أحاديث الكبار، وكل شيء جميل يحدث معها..

صباح الجمعة العاشرة على غيابه جمعت كل الرسائل التي كتبتها له، قرأتها بصوت مسموع للتأكد من سماعه لحروفها.. عانقت الرسائل.. خبأتها تحت وسادته ثم كتبت له رسالة قصيرة بورقة صغيرة وخبأتها في جيبها.. عادت إلى غرفتها عاقدة العزم على التسلل للمشاركة في المظاهرة، كتبت عبارة على لوحة جهّزتها مسبقًا، ثم استأذنت أمها للعب مع أبناء الجيران، لكنها هذه المرة توجهت للشارع العام، كانت قد سمعت من جار زار منزل العائلة أنهم سيقومون بمظاهرة هناك، خرجت بين الجموع تصرخ بكل عزم وقوّة.. تخاطبه بين نفسها.. «نضال هل تراني؟ أنا هنا بينهم»..

اقتربت بجرأة إلى المقدمة، طلبت من الشاب الذي يمسك مكبر الصوت أن يعطيها إياه، نظر الشاب بفزع:

- ماذا تفعل طفلة بين الجموع في مكان خطر؟

طلب منها العودة، أصرّت على البقاء، وبين شدّ وجذب اقتنع الشاب بإعطائها مكبر الصوت لتغنى أغنية (جنّة) مقابل عودتها مباشرة إلى المنزل بعدها، بدأت بصوتها الطفولي تغني «جنة.. جنة.. جنة.. والله يا وطنا» كانت حنجرتها صادقة وصوتها يصل للسماء.. والجموع تردّد خلفها.

قبل أن تنهي أغنيتها كان الهاون أسبق إليهم ليستقر في الأجساد البريئة.

صرخات وأشلاء.. دماء تتناثر في كل مكان..

أنّات ودخان يعمي الأبصار.. روائح خانقة وأصوات من تبقى على قيد الحياة تستجدي المساعدة.

ساعات من الفوضى والضياع عاشها من نجا من الهاون هذه المرة ولم تصعد روحه للسماء، أعداد الشهداء كانت في تزايد، والملامح المشوهة تغلب على كل من صعدت روحه تلك الساعة، ثلاجة المشفى غصت بالكثير من الأجساد الطرية.. كان جسدها واحدا منها.

مساءً؛ كانت رائحة الشهادة والدماء تعبق بالحي.. وعلى أحد الأرصفة بقايا ورقة محترقة كُتب عليها:

«**حبيبي نضال، أنا قادمة إليك اليوم.. انتظرني**».

كابوس الصباح

فزعةً استيقظت.. استعذتُ بالله من الشيطان وأنا أتفقد المكان حولي؛ ما أزال هنا..

تأمّلت شقوق السقف، وأنا أحاول إعادة الهدوء لنفسي في فراشي العفن.. كان الوقت لا يزال مبكّراً، الجميع نائمون.. باستثناء الحاجة فتحية.. جالسةً في زاوية الملجأ.. شحوب على وجهها يحكي قصة معركة أمعاء خاوية نخوضها منذ أيام.. وبقايا سواد تحت عينيها الواسعتين.. وخمسون عاماً تركت على وجهها تجعيدات بحجم همّهنّ.. بدا وجهها متعباً.

كانت تتمتم بأدعية كعادتها وتقلب أصابعها كأنها تعدُ شيئاً ما.. التفتّ إليها وابتسمت نصف ابتسامة شاحبة كتحية الصباح.. ردت بابتسامة وإيماءة من رأسها.

أحبُّ النظر إليها، في وجهها المستدير نور يريح القلب والنفس.. هي كأمٍ لنا تحتضن أرواحنا المتعبة.. تربت على أكتافنا الصغيرة.. وتدعو لنا بقلبها الأبيض.

حاولت العودة للنوم فلم أستطع.. بقايا الكابوس تطاردني وتخنق النفَس المتبقي في الزنزانة الضيقة، تحسست بطني الفارغ، آخر مرة دخل إليه الطعام قبل خمسة أيام.. هنَّ عدد أيام معركتنا! أترى ستنتصر الأمعاء الخاوية على بطش السجان! لم أكن أشعر بالجوع لكن الوهنَ قد هدَّ جسدي الهزيل.. تقلّبت في فراشي محاولة استعادة النوم..

لا فائدة! بتثاقل حاولت القيام.. كان الدوار يجعلني أرى الأشياء تتأرجح بجنون، بقيت جالسة في محاولة لإيقاف نوبة الدوار الصباحية..

بعد قليل زحفت إلى زاوية الملجأ حيث تجلس الحاجة فتحية.. جلست بجانبها، وأسندت رأسي على كتفها، تمتمت: «كابوس!» رأيتهم يدخلون علينا كمجانين ويضربوننا بكل ما أوتوا من قوة..

وضعت أصابعها الحنونة على فمي وهمست: «قولي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». استعذت في سري وبقيت بجانبها.

سألتني بصوت حنون:

- جائعة؟

رددتُ على سؤالها بابتسامة.

أخرجت من جيبيها كيساً صغيراً به ذرات بيضاء.. وضعت في كفّي بعضاً منها وأكملت بهمس:

- هذا بعض الملح، سيبعد الدوار قليلاً عنكِ..

وضعت ذرات الملح في فمي وتناولت كأس ماءٍ كان بجانب الحائط..

عبثاً أحاول طرد الأفكار التي تأتيني.. بقيت أردد بعض الآيات محاولة زرع اليقين في قلبي.

كانت الحاجة فتحية تمسح على رأسي وكتفي وهي تهمس: «الله يحميكِ».. غفوت على كتفها وأنا أشم رائحة أمي.

وبلا مقدمات.. استيقظتُ على أصوات جلبة وصياح وتهديد! استيقظت؛ وكان باب الزنزانة يُفتح لحظتَها.. أعداد كبيرة من الجلادين تدفّقوا إلى الزنزانة! ظننتُ أنني أحلم لوهلة، التحمت بالحاجة فتحية وأنا أردد الاستعاذة، لم أكن بحاجة لوقت كبيرة لأدرك أن ما يحدث ليس حلماً، فاللطمة التي شعرت بها على وجهي كانت كفيلة بجعلي أستوعب أن ما يحدث واقع.

ضرب وصياح.. ركل بالأيدي والأرجل، صياح وضحكات.. وعبارات تهديد مختلفة تنهال على الجميع.. كان هذا حالنا في تلك الدقائق.

لم أكن أرى شيئاً كنت أغمض عيني وأنا أشعر بالوجع في كل جسدي من الضربات والركلات.

كنت أسمع أنات المعتقلات وصرخات الرعب والخوف، من بينها كانت تتسرب ضحكات الشبيحة بلؤم وحقد وكلمات

- «إضراب يا... والله لنخليكم تعرفوا شو يعني إضراب.»

شدني أحدهم بقوة من ملابسي.. فتحت عيني لأرى وجهه النتن تلك اللحظة كان يضربني على وجهي وهو يقول:

- «مفكرين راح تنتصروا بإضرابكم!؟»

لحظتها تسرب كل الخوف والرعب مني.. نظرت إليه بتحدٍ، وقلت:

- «اي راح ننتصر.»

صمت لثوانٍ وتوقف عن الضرب.. استدار إلى أصحابه، وقال:

- «تعالوا شافوا آل راح تنتصر.. خلينا نورجيها كيف النصر..»

رماني على الأرض وبدأت الضربات تنهال علي من كل صوب.. أغمضت عيني، وأنا أنادي يا الله.. تتقاذفنا الأرجل والأيدي.. تنسى حتى كيف يكون الألم.. وتنسى كل شيء، لا تجيد حتى الصراخ.. أصبح كل شيء أبيضاً بعد ضربة سددها أحدهم على رأسي..

بصعوبة أحاول فتح عيني.. ظلام يغطي كل شيء، وخيط نور رفيع يتسرب من زاوية الباب الأيمن. ببطء حركت رأسي لاستيعاب المكان.. لا أحد بجانبي.. سحبت جسدي المتورم والتحمت بأحد الجدران.. المكان أضيق من أن يحوي أنفاسي.. السقف القريب يطبق على صدري.. رائحة العفن تقضي على بقايا الحياة.. آثار الدماء لمن مرَّ من هنا تحكي قصص رعب.. أدركت أنني في المنفردة!

بدأت أتذكر ما حدث..

كابوس الصباح

حبّات الملح

باب الزنزانة

أعدادهم وهم يتدفقون

الضرب

الصراخ

الأنين

التهديد

الوعيد

ثم وجهه النتن.. تذكرت كل شيء..

تحسست وجهي المتورم.. لزوجة الدم على يدي.. قدمي التي لا أشعر بها، كنت أحاول إحصاء الخسائر بابتسامة هزيلة تذكرت عبارة أمي «خسائرنا لا شيء.. خسائر العدو فادحة»

لم أخسر شيئاً.. لا تزال أعضائي كاملة، ما أزال بيدين وقدمين ووجهه مكتمل الملامح..

من مكان قريب مني سمعت «الله أكبر عليكم » كان صوت الحاجة فتحية.. ثم أتاها الرد:

- «بتسكتي ولا بنجي بنكمل عليكِ!!»

أدركت العقوبة الجماعية التي وقعنا بها.. جميعنا في منفرداتٍ عقوبةً على الإضراب..

لحظتها ورغم كل الألم، شعرت بنصر من طعم غريبٍ..

نصر يجعلك تستحقر سجانا يخاف من إضراب

تحسست بطني الفارغة.. تمتمت

«بهـا سـننتصـر».

الوداع الأخيـر

الحارة بأكملها اجتمعت في المنزل الصغير لوداعه..

نادوا على ابنه:

- «تعال شوف أبوك..»

دخل محمد، غرفة كبيرة مليئة بالرجال، ما عادت ملامح الغرفة تتضح من كثرة الوجوه، جسد ممدّد في المنتصف، ورجل عقب آخر يمر عليه يعانقه، يقبله، يسلم عليه، ويهمس في أذنه بكلمات وداع وربما وعود ودعوات..

اقترب محمد قليلاً

بعينيه السوداوين الحادّتين، ونظرة الترقب التي رافقته، كان وجهه مطفأ الابتسامة، شعره غير مرتب، وعلى ثيابه آثار تراب تشي بشقاوة الطفولة.. اقترب بسنواته الأربع، وحاجز خجل لم يعرف كيف يكسره في حضور كل هؤلاء الغرباء، نظر لأبيه من بعيد وتوقف في مكانه..

بحث عن وجه يعرفه، كان خاله الأقرب إليه، أمسك بيده وشدها وعيونه مسمّرة على خاله، وهو يقول:

- لماذا ينام أبي في منتصف الغرفة؟

انحنى الخال ليكون بمستوى الطفل البريء، قال وهو يغالب دمعه ويبتسم:

- حبيبي أبوك ليس نائمًا.. أبوك استشهد.
- ماذا يعني استشهد؟

ردّ الخال، وهو يمسح دموعه:

- يعني أنه ذهب للجنة.. هيا لنسلم عليه

اقترب الخال سلّم على الشهيد.. ودموعه غطت وجهه..

اقترب محمد ليقلّد خاله.. نظر لأبيه، ثم بهدوء بدأ يهز كتفه ويقول:

- بابا.. استيقظ بابا..

بابا.. قم بابا..

بابا.. الضيوف هنا ينتظرونك.. هيا قم إليهم...

بابا.. حادثني أنا هنا

بابا .. رد عليّ..

أريد أن أسمعك..

افتح عيونك أرجوك..

حاول مرارًا إيقاظ أبيه، تحريكه، فتح عينيه بأصابعه الطفولية كما يفعل حين يستعصي عليه إيقاظ أبيه صباحًا، حاول تغير المشهد، لكنه لم يستطع ، ولم يقترب منه أحد لإنهاء هذا الوجع، غصّت الكلمات بالأفواه، وبكى كل من تماسك أول المشهد!

وحده الخال من اقترب لينهي هذا الوجع.. أمسك بمحمد من كتفيه بهدوء وقال له:

- عانق والدك حبيبي.. سيذهب بعد قليل
- كيف سيذهب وهو نائم؟
- سنحمله بني
- ومتى سيعود؟
- حبيبي..

ضمّه خاله لينهي الحوار وأخذه لأمه..

في الجانب الآخر من المنزل كان عزاء النساء، كل نساء العائلة مجتمعات، الخالات والعمات، بنات العائلة، والجارات والصديقات وكلّ من يعرف العائلة واستطاع القدوم، كثير من الغريبات هنا، والمصاحف موزعة بين الأيدي، كذا المسابح، والكل يئنّ بصمت، ويبكي.

اقترب الولد من أمه:

- أمّي لماذا البكاء؟
- حبيبي رأسي يؤلمني.

ببراءة يردّ:

- وكل النساء هنا تألمهنّ رؤوسهنّ ويبكين؟

لم يجبه أحد، وبقي الولد يتأمل الوجوه، وعلى غير العادة جلس بزاوية الغرفة دون أن يتحدث مع أحد..

لم ينتبه أحد لصدمته أو حزنه، كان يحاول مرارًا تفسير مشهد أبيه الذي رآه راقدًا في منتصف الغرفة، آلاف الأسئلة تعصف برأسه، وبكاء أمه يزيد المشهد ذهولًا، عقله الصغير لم يستوعب المشاهد المتتالية المفاجأة..

في الليل وبعد ذهاب الجميع، كان هو على ذات الجلسة بذات الزاوية، رآه خاله اقترب منه وجلس بجانبه.. أسند رأسه إلى الحائط وعيونه المتورمة أخذت استراحة بإغماضة سريعة، وما زالت تجود عليه بالدمع الكثير.

فتح عينيه مرة أخرى وتأمل يديه، ما زال تراب الحفر عالقًا بهما، ما زالت تربة الشهيد بين يديه..

سأل محمد خاله: أخذتم أبي؟

يرد الخال وهو يداري دموعه:

- نعم..

يضع يده على كتف محمد ويقول في قلبه:

- بيدي هذه أخذته.. بيدي هذه وضعته، بيدي هذه استودعته.
- متى سيعود؟

يمسح الخال على يد محمد..

- حبيبي أبوك لن يعود.. نحن سنذهب إليه إن شاء الله.

يرد محمد:

- لكنّي أريد أبي!
- سنتفق على شيء.. كلما أردت الحديث مع أبوك ستنظر للسماء وتحكي له كل ما يخطر ببالك.. وهو سيسمعك.

ابتسم محمد وكأنه وجد الحل.. وارتمى في حضن خاله ونام.

أيام مرّت والكل يرى محمداً حين يخرج فجأة لأرض الدار ويبقى بمفرده.. ينظر للسماء ويتكلم كثيرًا، وحين يسأله أحدهم عما يفعله يقول:

- كنت أحادث أبي.

ذات مرة عاد الخال من عمله ووجد محمداً يجلس وبجانبه حقيبة صغيرة، وقد ارتدى ملابس الخروج، وقبل أن يدخل الخال للمنزل ركض محمد إليه وهو يحمل حقيبته وأمسك بيد خاله:

- خالي خالي.. خذني عند أبي

سكت الخال من هول المفاجأة.. لم يعرف ماذا يقول.

- خالي أنت أخبرتني أن أبي في الجنة أليس كذلك؟
- نعم..
- خذني إليه.. أنت أوصلته إلى هناك.. وأنا لا أعرف الطريق.. خذني إليه
- حبيبي ألم أقل لك أنظر للسماء وحادثه وسيسمعك؟
- فعلتها كثيرًا لكنه لم يجبني، لم أسمع صوته، لم أره، هيا هيا.. أريد أن أذهب إليه، اشتقت له كثيرًا.

لفّت الحيرة الخال.. وهو يمسك ابن أخته.. يقول له:

- أنا أخذت أباك لكنني نسيت الطريق.. لا أذكر أين ذهبنا ولا كيف وصلنا..

ينظر محمد لخاله كمن وقعت عليه خيبة كبيرة.. يترك يد الخال ويعود للمنزل بيأس لا يحتمل طفولته..

مرّت سنة على ذلك اليوم، ولازال محمد كلما مرّ أحد من أمامه، سـأله:

«أتعرف طريق الجنة؟ خذني إليه!»

معراج إلى السماء

كانت الشمس تميل إلى الغروب، اختلس نظرة لساعته ليتأكد أن الدقائق الخمس قد اكتملت، عاد مسرعًا إليهم.

على باب غرفة الحضانات رأته الممرضة، ابتسمت له وقالت:

- لا جديد يا دكتور، لم تمض سوى خمس دقائق، الجميع بخير..

بادلها الابتسامة قائلًا:

- أحب أن أطمئن عليهم بنفسي، هم أولادي.. أخاف أن يصيبهم شيء من حصار المدينة.

وقبل أن ينتظر ردّها دلف من الباب، نظر إليهم وبدأ يتمشى بينهم ويطمئن عليهم واحدًا واحدًا وهو يردّد المعوذات وآية الكرسي، ثم أرسل قبلاته لهم ثمّ أغلق الباب وخرج.

أحضر كرسياً من غرفة مجاورة وجلس بجانب الباب ممسكاً هاتفه في يده محاولاً البحث عن طريقة للاتصال بأهله وزوجته.

- لعنة الله عليهم حتى الاتصالات قطعوها..

تمتم (عصام) بغضب، وهو يسند رأسه إلى الجدار، وأخذ يردّد بعض أدعية الخوف.. ثم غالبه النعاس.

هذا حال الدكتور عصام منذ أن بدأ حصار المدينة..

لم يرزقه الله بالأبناء فكان يعد المواليد الجدد في الحاضنة أبناءه، يرعاهم ويهتم بهم كما لو كانوا من صلبه.. ومنذ بدأ الحصار لا تمرّ خمس دقائق دون أن يراهم ويتأكد بنفسه أن كل أمورهم بخير.

كان قد مر على حصار (حماة) ما يقارب شهرًا، فبعد المظاهرات التي بدأت تطالب بإسقاط النظام والهتاف الشعبي المستمر حوصرت المدينة.. والأنباء تشي باجتياح قريب..

استيقظ عصام على صوت صديقه (حازم)..

- عصام.. عصام لم أنت نائم هنا؟؟ هلمّ بنا إلى مكتبي
- ماذا؟؟ حازم

هب واقفاً باتجاه باب غرفة الحضانة، وهو يقول:

- هل حدث شيء للمواليد؟

سحبه حازم من يده..

- لم يحدث شيء، لكن يجب أن ترتاح قليلا يا أخي.. لم تنم منذ يومين.. لا بد أن تأخذ قسطاً من الراحة..
- لا لا، سأكون بخير وأنا هنا.. (اختلس النظر لساعته) مرت عشرة دقائق حازم أعتذر منك يجب أن أدخل لأرى أطفالي.

حازم ممازحاً:

- رزقك الله أفضل وأجمل منهم..

نظر عصام نظرة امتنان لصديقه ودخل للغرفة، سلم على أطفاله وبدأ يدندن بإحدى أناشيد الأطفال، وهو يمر عليهم، ليتأكد من أجهزتهم وكل ما يخصهم.. وقبل أن يخرج بقليل انقطع تيار الكهرباء..

ذعر عصام، وبفزع نظر للإضاءة ليجدها مغلقة أيضا! اقترب من القابس قام بتشغيله لا فائدة.. لا توجد كهرباء.

خرج مسرعاً من الغرفة، ألقى نظرة سريعة على باقي الغرف:

- أيضاً لا كهرباء..

كسرعة البرق كان في مكتب المدير.

- سيدي انقطعت الكهرباء.. وإذا لم تعد ستتسبب في كارثة كبيرة..
- لا تقلق يا عصام، ستعمل المولّدة خلال دقائق..

عاد عصام لغرفة الأطفال والقلق يأكل قلبه.. هيا هيا بسرعة..

نظر للخدّج:

- لا تقلقوا يا أحبائي، ستعود الكهرباء خلال دقائق..

وفعلاً لم تمض سوى دقائق حتى عادت جميع الأجهزة للعمل مع عمل المولدة..

تنفّس عصام الصعداء شاكراً ربه ثم خرج وبقي جالساً على باب الغرفة..

لا يدري عصام كم مر من الوقت لتفاجئه الكهرباء مرة أخرى بالانقطاع.. هذه المرة بفعل فاعل.. جاءته الممرضة مسرعة تقول:

- لقد أعطبوا المولّدة!

جنّ جنون عصام.. صرخ:

- سيموت الخدج.. إنهم لا يستطيعون العيش بدون الأجهزة.. لا يمكن أن يحدث هذا..

وجّه كلامه للممرضة:

- ابقي أنت معهم، وسأعود بعد دقائق

ذهب مسرعاً للمدير مرة أخرى كانت المستشفى في حالة من الفوضى والاستنفار لم تشهدها من قبل.. لم يكن المدير في مكتبه، وعصام يبحث عنه كطفل أضاع أمه.. مرّ أمام العناية المركزة.. سمع صوت بكاء.. علم أن الأرواح بدأت تصعد لباريها بعد توقف الكهرباء...!

استوقف (طارقاً)، طبيب جراح يعمل معه..

- (عصام): ماذا يحدث؟ لم انقطعت الكهرباء مرة أخرى؟
- (طارق): حاصروا المشفى وأعطبوا المولدة..
- (عصام): لا يمكن سيموت المرضى.. سيموت أطفالي..
- (طارق): ومن يأبه لذلك؟!..

ثم ترك عصاماً وتوجه لإحدى الغرف في محاولة يائسة لإنقاذ المرضى..

عاد عصام مسرعاً لغرفة الحاضنات.. كان وجه الممرضة لا يبشر بالخير.. نظر إليها:

- كم؟
- خمسة..
- حسبي الله ونعم الوكيل.. لابد من عمل شيء.. لا يمكن أن أنتظر حتى يموتوا جميعاً.. يا رب لطفك بهم.

ذرف دموعاً ساخنة وهو يضع الخمسة بجانب بعضهم ويسدل عليهم الغطاء الأبيض..

خرج باتجاه باب المشفى.. رآه حازم:

- إلى أين يا عصام.؟!

- سأخرج لأكلمهم...
- تكلم من؟!
- الجيش.
- هل جننت؟؟ سيقتلونك..
- لا بأس، ليقتلوني، لكن يعيدوا الكهرباء للمشفى.. من أجل الخدّج لا من أجل شيء
- عصام لا تفعل..

لم يسمع عصام صديقه، وخرج وهو يردّد الشهادة.. وبكل ما أوتي من شجاعة توجه إلى مجموعة من الجند كانت واقفة قبالة الباب رافعاً يديه إلى الأعلى..

صرخ به أحدهم:

- قف مكانك

شجاعة... تهور... جنون... كل الكلمات لا تصف قوة واندفاع عصام.

- أريد أن أقابل الضابط المسؤول...
- ماذا تريد؟

- أخي أرجوكم.. أعيدوا الكهرباء للمشفى.. سيموت المرضى...
- ليموتوا، وما شأننا نحن؟!
- أخي.. لدينا 40 طفلا خديجا، مات - إلى الآن - منهم خمسة.. سيموت الباقي إن لم تعيدوا الكهرباء..

صمت الجندي.. يبدو أن شيئا من بقايا الإنسانية تحرك داخله.

وكزه زميله ينهره بها عن تعاطفه وأكمل هو الحديث:

- لن تعود الكهرباء.. عد للمشفى قبل أن أقتلك هنا..

عصام متوسلاً:

- أخي أرجوك.. تخيل لو أن طفلك بينهم..

الجندي غاضباً:

- قلت لك عد الآن أو ستموت..

عصام متحدياً:

- إذن اقتلني أو أعد الكهرباء..

وقبل أن يتلقى عصام رداً.. كانت رصاصة غادرة من ضابط المجموعة قد استقرت في صدر عصام.. لتصعد روحه معانقة أرواح أطفاله الأربعين.

أمل من رحم الحصار

كان يعلم أن الرصاصة التي ستأخذ روحه معها لن تؤلمه.. هكذا كان يمشي متحدياً الموت في طرقات المدينة المحاصرة منذ أسابيع. ككل صباح يحمل أرغفة الخبز ليوصلها للحارة الأخرى، يراوغ القناص المتأهب على البناية في ناصية الشارع، يعبر الشارع مع طلقات تصيب ما حوله، ويصل بعد سباق مع الرصاص للرصيف الآخر، يحبس أنفاسه ويلتحم مع جدار المحلات المتراصة ريثما يهدأ القناص المحاول تتبع أثره، ثم يزحف ببطء نحو الممر الموجود بين المحلات، ينسلّ داخله بهدوء، يضع أكياس الخبز جانباً وينحني سانداً يديه على ركبتيه، وهو يتنفس الصعداء.

جولة يخوضها أحمد كل صباح، مذ أخذ على عاتقه إيصال الخبز للحارة الأخرى، كانت المهمة أشبه بالموت المحقق، إذ يعرف الجميع مكر القناص وسرعته، لكنه أصر على كسر الحصار.. وبطريقته.

صباح اليوم التالي أعدَّ نفسه، لبس لثامه، وخرج، كانت أكياس الخبز بانتظاره. أخذها ووقف على الجهة الأخرى، جولة جديدة مع الموت، نفسٌ عميق، وترديد للشهادة، وانطلاق سريع، لكن القناص كان أسرع هذه المرة وسبقته الرصاصة مخترقة فخذه الأيسر، سقوط أليم على حافة الرصيف الأخرى، وتناثر لأكياس الخبز في الهواء، ألم حاد وصرخة مكتومة، بالكاد استطاع سحب جسده المصاب ليلتحم بأحد أبواب المحال القريبة إليه، ولشدة الألم تيقّن أنها ليست

شهادة! فالرصاصة التي تقتلك لا تؤلمك! كان عليه أن يفكر أولاً بإيقاف النزيف دون أن يصدر حركة تُذكَر لئلا تصيبه محاولات القناص، نظر حوله علّه يجد شيئاً يلف جرحه به، لكن الرصيف كان فارغاً إلا من علب السجائر وزجاجات العصير الفارغة.

ضغط على الجرح بيده محاولاً وقف النزيف وعلامات الألم باتت واضحة على وجه، رصاصات القناص بين الفترة والأخرى تذكّره بموت يقترب.

أسند رأسه إلى باب المحل المختبئ عنده، استجمع تركيزه ليصل لحلٍ ينقذه، أخرج مفتاحه من جيبه وأخذ يعبث بقفل باب المحل، كان عليه أن يحاول كثيراً قبل أن يستسلم القفل له، ببطء سحب القفل وبدأ يرفع الباب الحديدي للأعلى لينزلق من تحته بحركته السريعة للداخل، لم يكن المكان غريباً عليه، فمذ وقعت عينه على الكرسي في الزاوية اليسرى من المكان..

عرف أنه في محلّ أبي محمدٍ الحداد، تراءى له وجه أبي محمد بابتسامته المعهودة وهو يرحّب به عندما يأتيه للسلام عليه. رمى الجسد المنهك على الكرسي، وعيناه تبحثان عن شيء يلف به الجرح، قطعة قماش بالية مرمية على الأرض وفت بالحاجة، سحبها وضمد جرحه الذي نزف كثيراً.

كانت أغراض أبي محمد مرتّبة كما يتركها دائماً، على الطاولة نظارته وأوراق وأقلام، في الجهة الأخرى تصطف الأدوات كأنها في تحية للعلم، وفي الأرض قطع الحديد، وملامح باب لم تكتمل، وقضبان مختلفة الأشكال والأطوال.

أمال رأسه للخلف تاركاً جسده يئن بألم يزداد مع الوقت، وجلس في انتظار رحيل القناص، كان يعرف تماماً أن القناص لن يرحل.. فأزيز رصاصاته يعلو كل حين في محاولاته الدائمة اصطياد فريسة أخرى.

كان لابد من حلٍ آخر غير انتظار الموت بنزيف بطيء يقتلع كل آمال الحياة، كانت دقائق الراحة كفيلة باستجماع طاقة لا بأس بها للتحرك لنهاية المحل، بحثاً عن مخرج من الجهة الأخرى، باءت توقعاته بالفشل إذ لا فتحة ولا منفذ، وقبل أن يتسلل اليأس إليه قرر حفر فتحة في الجدار! قرارٌ يتحدّى به الموت.

بدون تفكير سحب قضيباً معدنياً من القضبان المصفوفة على الأرض، وبدأ الحفر في الجدار، مضت ساعة دون أي تقدّم يذكر، أصر على المتابعة رغم وجعه، بعد عدة ساعات استطاع عمل ثقب صغير في الجدار، كان التعب قد شل يده عن الحركة، تمدد على الأرض يفترش الأمل من نور الثقب الذي صنعه، ترتفع وتيرة الألم مع الوقت، قطع دقائق الراحة مقرراً المواصلة، أمسك القضيب المعدني من جديد،

بصره للأعلى ولسانه يردد: يا رب، شيئاً فشيئاً كان الثقب يكبر، ويكبر معه الألم، يتذكر وجه أمه في محاولة لنسيان الوجع الممسك به، ويكمل، ضحكة طفله كانت عاملاً آخر تشد على يده المتورمة من آثار الحفر، ساعات مرت زحف خلالها الليل ببطء ليغطّي سماء المدينة المتعبة.

توقف عن الحفر بعد أن اتسع الثقب ليصبح بمساحة شبر على الجدار، بدأ الدوار يسيطر عليه، والوهن الموجع يستنزف بقايا القوة في يده، رجله اليسرى لم يعد يشعر بها، تكور على جسده وهو يردد كلمات حفظها من أمه في لحظات الضيق، لا يدري كم مر من الوقت.. عاد مرة أخرى بعزم استمده من أحباب ينتظرون عودته، كان واثقاً من قدرته على الانتهاء قبل أن يداهمه الموت، قضى ليلته بين حفر وراحة، قوة وضعف، أمل ويأس، إغماء واستيقاظ.. وكثير من التناقضات التي عاشها..

صباحاً كان الثقب قد أصبح فتحة كبيرة يستطيع الخروج منها، كان الموقف أشبه بالخروج من قبر، خطان من الدموع لم يتوقفا وهو يعود للحياة من جديد، وعندما أصبح في الحيَّ الآخر، نادى صديقاً له اعتاد وجوده في هذا المكان، هرع صديقه إليه، وحمله على عجل وهو يسأله عن الإصابة وتفاصيلها، وغاب أحمد عن الوعي براحة استحقها بعد تعبه..

بتثاقل فتح عينيه، كان المكان هادئاً، خيط المغذّي يمتدّ إلى يده اليمنى، ورجله اليسرى مثبتة للأعلى، امرأة خمسينية تجلس على كرسي بجواره، ابتسمت له حين التقت عيناهما: «حمداً لله على سلامتك بني»

أجاب بابتسامة وإيماءة رأس..

فيما بعد عرف أنه قضى يومين في إغماء أشبه بالنوم..

وعاد للحياة من رحم موت محقّق.

نفق من نور

(1)

دخلتْ غرفتَها، وأغلقت الباب خلفها. نظرت بتأمّل للأشياء وتفاصيل الغرفة؛ كلّ شيء كما هو، لم يتغيّر شيء.. لماذا تغيّر كلّ شي خارجَ الغرفة؟!

فتحت حاسوبها الشخصي، وعلى صفحة بيضاء كقلبه بدأت الكتابة:

يقولون أنّك متّ

أنا لم أصدقهم

صرخت بملْء فمي: لم يمت!

لم يسمعني أحد

لم يرد عليّ أحد

أحضروا الكثير من الكراسي

وملؤوا المنزل بها

صفّوا المصاحف والسبحات وكتب الأذكار

رائحة القهوة المرة تعبق في المكان

تلحّفوا بلون الليل وجلسوا

جاريتهم.. لبست أسود مثلهم

صوت القرآن لا ينطفئ

وأمك تجلس بجانبي

والجميع ينتحب

وحدي صامتة لا أصدق ما يفعلون

أناس كثيرون

الجالس والواقف والماشي والقادم

وعبارات كثيرة أسمعها ولا أسمعها

لكن قلبي يهتزّ كلما قالوا

(رحمه الله)

ليتهم يصمتون

يكملون بإصرار

(عظم الله أجركم)

(شهيد إن شاء الله)

(الله يصبركم)

أصمّ أذني قبل أن تداهمني عبارات الشفقة

التي تطال (راما) و (محمداً)

راما تقف بباب البيت، تنظر إلى الجميع

تبحث عنّي في هذا السواد الأليم

أشير لها بيدي فتقترب بتردّد:

ماما.. ماذا يحدث؟

أجيب بلا تردّد: ما بعرف، ما في شي مهمّ.. روحي العبي

عدت إلى مكاني وعادت راما للعب

مرّ وقت لا أعرف إن كان طويلًا أو قصيرًا

لمحت أخاك يدخل للمنزل وبيده صورة كبيرة لك وبزاويتها اليسرى خط أسود!

تركت مكاني وذهبت إليه

أمسكته من ذراعه وصرخت في وجهه:

لماذا التشاؤم؟ كيف تكذبون الكذبة وتصدّقونها؟!

قال لي: إنه راجع.. هو لا يكذب..

قال سيرجع، لماذا لا تنتظرونه مثلي؟!

لم يجب أخوك بشيء، لمحته يغالب دموعه، ربّت على كتفي وقال:

الله يصبرك مرت أخي

بقيت واجمة في مكاني

لم أصرخ، ولم أبك أيضًا

كنت ككاميرا المراقبة، ترقب من مكانها ما يحدث هنا

وبيدي هاتفي أقلّبه كل حين

انتظر رسالتك لي

كما تفعل دائمًا حينما يطول غيابك

كنت أنتظر أن تكتب

«أنا بخير..

سأعود اليوم.. سأعود غدًا»

كل الساعات تمرّ ولم يومض الهاتف باسمك

كل ما يصلني رسائل تعزية وأدعية واتصالات من الأهل والأصدقاء...!

وأنا صامتة أمام هذا الهجوم الكاسح

ثم راودتني فكرة أنك ستمتنع عن الرسائل وستقوم بعمل مفاجأة

ستدخل علينا من الباب لتنهي هذه المسرحية السخيفة

نسيت كل من حولي وتعلقت عيناي بالباب

كنت أنتظر طلّتك

بسمتك

صوتك

خيالك

طيفك

أيّ شيء منك

ثم هبط الليل دفعة واحدة

كما هبط على قلبي

عاد الناس لبيوتهم

نظرت إليّ أمك وطلبت مني الذهاب لغرفتي لأرتاح

دخلت للغرفة وأغلقت الباب

وجدتُ كلّ شيء كما هو

لم يتغيّر أيّ شي

فتحت حاسوبي وكما كلّ ليلة بدأتُ بالكتابة لك

ماذا لو كنت حقًا رحلت؟

ماذا لو كانوا صادقين وخانني حدسي اليوم؟!

ماذا لو كان وعدك خائبًا

ماذا لو أنك لم تعد؟!

لماذا تأخرت؟

أعرف أنك ستقرأ الرسائل في غفلة منّي، لكن هذه المرة أرجوك، اترك الرد.

بقيتُ أتأمل الشاشة لساعات

أنتظر ظهور إشارة استلامك للرسالة..

انتظر ردك!

(2)

اليوم الثاني.. مساءً

دخلت غرفتي يحملني الوجع

فتحتُ حاسوبي

وبدأت:

حبيبي بقيت أنتظر ردّك الليلة الماضية ساعات وساعات

كنت أقرأ كثيرًا من الأدعية والخوف يهاجم قلبي

آيات كثيرة رددتها

لا أدري ماذا قرأت وماذا تركت

أذكر أنك علمتني أن أقرأ سورة يس كلما هزمني القلق

وأقرأ الملك قبل النوم

وحين يلفّني الخوف أتدثّر بيوسف

كنت أبدأ بسورة وأنتهي بأخرى

لا أعرف ماذا أنهيت ولا أين وصلت

وأعيد.. أحاول جاهدة التركيز

أسقط لحظة الضعف الكاملة وأنتحب..

كل ما فيّ معك

قلبي وعقلي وأنا

جسدي مفرغ مني..

وحدي أعيش هذا الضياع

كانت تكبيرة الفجر الأولى حين غفوت على ذراعك

أيقظتني راما كانت تبكي وتصرخ وتناديك

عانقتها ونامت بجانبي

صليت الفجر ودعوت لنا

تلك اللحظة أحسست أني فقدتك

أني أضعتك

غلبني البكاء مرة أخرى

بكلّ قلب خائف مرتجف صرخت: يا رب فيق الصبح لاقيه حدّي ويخلص هالكابوس

ثم استيقظت مجددًا

ظننتُ أنه كان كابوسًا وانتهى

خرجت على عجل للصالة لأتأكد أن الصالة بحالتها الطبيعية خالية من الكراسي

صدمتني رائحة القهوة المرّة قبل رؤية الكراسي مصطفة

أمك في المنتصف تقرأ القرآن وتبكي

أختك بثوبها الأسود تنظف البيت استعدادًا لاستكمال مراسم العزاء مساءً

عمّتك وخالتك ولا أدري من أيضًا كان موجودًا

تراجعت بسرعة للخلف وأغلقت الباب

أسندت جسدي المنهك إليه

حاولت التنفس بعد أن اختنقت بالكابوس الحقيقي

يا ربّ إني أنتظر.. أعِده لينتهي هذا الألم.

توشحت بسواد وخرجت

اجتمعت النساء حولي

إحداهن تحاول تهدئتي

الثانية تقرأ لي القرآن

الثالثة تتمتم بأدعية وترقيني

وأنا أنظر باستغراب إليهن

كنت صامتة أتأمل الوجوه فقط

تكرر مشهد الأمس

نساء كثيرات دخلت وخرجن

وأنا لا زلت كما أنا، أنتظر شيئًا

قبل أذان المغرب بقليل

ناداني أبوك

أدخلني لغرفته

لم يستطع الحديث

أخرج من جيبه كيسًا به بعض الأغراض

حكى دمعه الحكاية

فتحت الكيس لأجد أغراضك

مفتاح المنزل، محفظتك، مصحفك الصغير، وقداحتك

قلت بإنكار: ماذا يعني؟

ردّ من بين الدموع: أعطوهم لأحمد اليوم، هو أحضرهم مع شهادة الوفاة!

لا أذكر شيئًا بعدها

لكنني حينها بكيت

بكيت بحرقة وألم

عانقت أغراضك

وبكيت

وخرجت للصالة مرة أخرى

جلست بذات المكان

وبدأت أقرأ القرآن بصوت منخفض

وقلبي يدعو أن تكون خدعة أو ما شابه

مضى اليوم

لا أتذكر منه سوى أغراضك، رائحتك، وصورتك بالخط الأسود.

استأذنت الحاضرين لأذهب لغرفتي

جاءت عمتك تريد مرافقتي فاعتذرت منها

وطلبت أن أبقى بمفردي

فتحت حاسوبي لأكتب إليك

ما زال في قلبي أمل..

(3)

اليوم الثالث.. مساءً

انتهى العزاء.. كلهم ذهبوا

وبقيت بمفردها

وبكل أوجاع الأرض بدأت بالكتابة:

أحاول استيعاب الخبر.. أحاول تقبّل ما يحدث.. أحاول تصديق أنك لن تعود

من الفجر أنتظرك.. لم أتوقّف لحظة عن البكاء

قلبي يرتجف

لا أدري إن كان خوفًا أو كنت قد بدأت تصديق الحكاية

كان يومًا كئيبًا ولم أنم أيضًا

كل الكوابيس تلاحقني

وكلما نمت، استيقظت وأنا أناديك

خرجت من غرفتي.. كل الوجع قد توزع على الوجوه بالتساوي

يبدو أن الوجع يحلّ بكل أثقاله في اليوم الثالث

جلست أستمع إليهم

تارة يتحدثون بقصص عنك وعن أخلاقك

تارة عن شهامتك

أخرى عن مواقفك

تتطاير لأذني دعوات لك

أضحك قليلًا.. وأبكي

أتقلب بين دمعات وبسمات

بيدي مسبحتك

كلما اختنق قلبي هربتُ للصلاة

تساندي أمك كلما خارت قواي

تمسك بيدي وتدعو لك بالمغفرة

وأنا كلما سمعت الدعوة بكيت بنحيب أكبر

أعلم أنك قلت لي من قبل: إن أتاك الخبر كوني قوية

ولا تبكي.. افرحي لأني نلت الشهادة

وأذكر يومها أنني وضعت يدي على فمك لئلا تكمل

وابتسمت وأنا أقول: ستكون بخير

يومها أمسكت يدك وطلبت منك أن تعدني أن نحتفل بالنصر سويًا

أن تعود لي دومًا

غالبك دمعك ولفك الصمت

بقيت أرجوك

قلت بحيرة: أعدك إن شاء الله

ثم عانقتني ورحلت

لا زلت أحتفظ بعبقك

بنفسك

بكل تفاصيل

بعد العشاء.. وضعوا العَشاء

وبدؤوا الأكل.. (على روح المرحوم)

تتقلب نظراتي بين الجميع

كيف صدّقتم بكل تلك السرعة؟

كيف استطعتم فعلها؟

خرجوا بعد الانتهاء

والكل يقول وهو يسلّم علي: (اللهم اجعلها آخر الأحزان)

ومع خروجهم هرب الأمل مني

وبدأ اليأس يحل بكل ثقله في قلبي

رسائلي لا تصلك

وأنت لم تظهر

والبيت بدا فارغًا

أمك منهكة

تركت من بقي

وهربت لغرفتي

كنتُ معك، أينما التفتُّ تحاصرني عيونك

بحر من الشوق يغرقني وأنا أنظر بعمق في قلبك

أينما التفتّ أراك

أينما وقعت عيني يحاصرني طيفك

بكل الزوايا أنت

وأنا الضعيفة في هذا الحصار

حصوني مهدودة ولا أقوى على المقاومة

لم أكتب لك

بل جلست بجانبك وبدأت الحديث

ثم في لحظة اكتمال الوجع

كان المطر أسرع لقلبي منك

سراب طيفك تلاشى

أيعقل أني لن أراك؟

كيف أعيش بدون صوتك

كيف لا أجد طيفك هنا وهناك؟

كيف ترحل؟

كيف فعلتها؟

كل دموع الأرض لن تفي وجعي

كل عزاء الناس مجتمعين لا يخفف نقطة من الألم

كل حزن أهل الأرض لا يعادل حزن فقدك

كيف أشرح لهم ما أعيشه؟

كيف أخبرهم أنني متّ لكن نبضي لا يطاوعني؟!

تسللت راما للغرفة دون أن أشعر بها

عانقتني كما الكبار

قبلت جبيني

«بابا شهيد.. بالجنة شهيد»

«راح نروح لعندو»

كلماتها فقط كانت العزاء..

استطاعت أن تعطيني أمل اللقاء وإن كان غير معلوم!

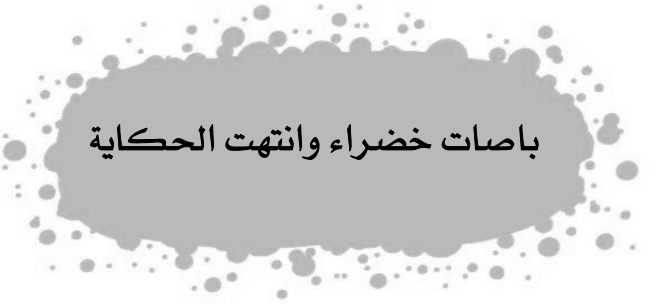
باصات خضراء وانتهت الحكاية

.. كان صباح الخلاص كما سموه، وكانت بداية الموت كما سميتها، كيف تعيش الأسماك خارج المياه؟! كيف يمشي الإنسان بلا قدمين؟! كيف نتنفس بلا هواء؟! كيف أسأل كل هذه الأسئلة السخيفة في عقلي وأنا من عشت الموت والحياة معًا في هذه المدينة!!

صوت أمي يستعجلني لأللم ما أستطيع حمله، وأساعدها لنصل حيث الباصات الخضراء..

وأنا أود لو أنهم ألغوا الهدنة وأنهم يلقون علينا صاروخًا واحدًا الآن يأخذ روحي قبل أن تخرج من البيت، هذا ليس خلاصًا، هذا موت محقق، هذا عالم ساخر يقف ليصفق على إنجازه بإنقاذنا في حين كنا نموت على مدار ثلاث سنوات دون أن يأبه أحد لنا.

- سناء.. سناء (داهمت أمي غرفتي)

فزعت ووقفت منتصبة مع خطي دمع يساندان ضعفي..

- نعم أمي..

لم تقل شيئًا، هي الأخرى كانت روحها تتشظى، اقتربت وعانقتني وقالت:

- هيا.. لم يبق الكثير
- أبي.. وأحمد، كيف نتركهم؟
- لا تنبشي الوجع هلأ الله يخليكي.

وخرجت، لم أكن أحتاج لشيء أحمله للخيمة، ستفسد الخيمة كل ما سآخذه، الملابس هناك لا تعنيني، كتبي لا مكان لآخذها، كرّاساتي ستضيع مع الأمطار، وخزانة الفتاة بمعدّاتها لا تلزم في المخيم.

أعدت ترتيب حقيبة صغيرة سأحملها على ظهري، تأكدت من وجود حاسوبي وملحقاته، كراسة واحدة، والأوراق التي أكتبها عن الحصار. أخرجتُ آخر ورقة أكتبها في (حلب) قبل خروجي:

«أنا سناء.. ابنة الثامنة عشر.. أشهد اليوم موتَ المدينة..

أنا سناء.. لم أعد أملك الوجه المستدير، بل خطوطًا وتعرجات بحجم طرقات المدينة..

أنا سناء.. بل كنت سناء.. وسأرحل من هنا بدون اسمي، بدون شكلي، بدون شيء..»

أسدلت الستائر بعناية.. رتّبتُ سريري على مهل..

ودّعتُ كل شيء بنحيب، وخرجتُ إلى أرض الدار.. وقفت أمام أحمد وأبي لا أعرف ماذا أقول لهما.. من سيسقي القبر كل صباح؟ من سيزرع النبات هنا؟ من سيحكي لهما ما يحدث كل مساء؟! من سيقرأ لهما الفاتحة؟ من سيمسح على هذه الرمال؟؟!

اكتفيتُ بقراءة الفاتحة والأفكار تتوالى في عقلي.. يا الله! نُقاد نحو الأخدود نحن.. خذ روحي قبل أن أصل!

خرجت أمي، ألقت السلام عليهما:

- سامحنا يا أبو أحمد.. سامحنا يا أحمد يا أمي.. سامحونا

مررتُ ببصري سريعًا على الدار.. وأنا أغلق بابها.. وألعن كل من سيدخلها بعدي.

أمسكتُ قبضة الباب، همستُ لها وأنا أقبّلها: «عديني ألا تكوني سهلة.. ألا تسمحي لهم بالدخول.. ألا تكوني حامية لهم».

صوت أمي من خلفي تستعجلني، وأنا أمسح الدمع تارة وأتركه تارات.

كمن بُعث من بعد الموت كنا نمشي.. فرادى وجماعات.. نجرّ معنا الحقائب والخيبات جنبًا إلى جنب.. والبكاء يعمّ المدينة، كان الدمار مستفحلًا في الشوارع.

لم أر حلب متعبة كما اليوم، لم أرها تموت إلا اليوم، كنت أراهن دومًا على صمودها، أمسح على كل ركام أمرّ عليه وأعدها بقلبي أنها ستكون بخير.. لكنّني اليوم أحنث الوعد بإصرار.

تناوب الشباب على المدينة منذ الهدنة، يمرّون على الشوارع تباعًا يكتبون على ما تبقّى منها وعود العودة «راجعين يا هوى راجعين».. «راجعين يا حلب راجعين».

لكنني لم أكن أصدّق..

شهدتُ كل حركات النزوح التي خرج أهلها قسرًا بعد قصفٍ لأشهر أو لسنوات، كلهم وعدوهم بالعودة، وكلهم الآن لاجئون.

وصلنا..

الساحة ممتدة برمال تغطي كل شيء.. بقايا الدمار على الجانبين، آثار الصواريخ على كلّ شيء، وحدها دماء الشهداء من غابت عن المشهد، كل شيء تلوّن بالبني الفاتح وألوان الركام إلا خطّ أخضر في المنتصف؛ خطّ الباصات الذي سيحملنا..

وقفنا كما الجميع.. العم أبو محمود مع الشباب الذين اعتادوا على خدمة المدينة ينظّمون الدور، يرتّبون القوائم والأولويات..

(زاهر) ابن خالي أيضًا معهم.. والقلب معه!

زاهر كان رغم كل الذبول الذي كان يعتليني.. اقترب مني ومن أمي حين رآنا.. حاول تمهيد بعض الحجارة على طرف الطريق، ووضع عليها لثامه وطلب منا الاستراحة..

جلست أمي.. وبقيتُ واقفة.. نظرتُ لزاهر.. كان يدرك ما أفكر فيه.

- «حجّة راح نعمل لفة بالحي هون أنا وسناء ونرجع..»

قالها زاهر طالبًا الإذن من أمي لمرافقتي في جولة أخيرة.

ومشينا جنبًا إلى جنب، لا أتكلم ولا أقول شيئًا، هو فقط يتحدث، يحاول ترتيب حلب الجديدة كما يقول.. لم يكن أخًا لي بأية حال، وإن رآنا الجميع أخوة.. هو وأنا نعرف جيدًا أننا لسنا أخوة؛ لكن رباط الأخوّة الذي ربطنا به أهلنا أعطانا مساحة وحرية.

- اسمعي سناء.. سنعيد حلب أجمل من قبل.. أتعلمين كان لدينا حارات تحتاج هذا الدمار.. غدًا عندما نعود سنعمل على تنظيم الشوارع بشكل جديد مرتب.. ونضع لها أسماء...

قاطعته بيأس:

- هل سنعود؟؟

ولم أعد أسمعه بعدها.. كان السؤال قد مسح كل أحلامه من أمامي دفعة واحدة ولم أعد أرى سوى لون الركام من جديد.

اختصر كل شيء وقال:

- سنعود.. وسنتزوج هنا!

لم أعلق بشيء.. عدنا لأمي كانت الحافلة الثالثة قد انطلقت وكان من المفترض أن نكون في الرابعة..

فبعد الجرحى، وكبار السن.. كان دور النساء والأطفال.

حاولت اقناع أمي أن تذهب وأن ألحق بها في آخر حافلة.. وفي نفسي أمنيات ألا تبقى حافلة وأن أبقى هنا.

أمي عارضت بشدة، وساندها زاهر في المعارضة، وكان يعلم يقينًا أنني سأساومه على البقاء مع المقاتلين المحرومين من الخروج..

لم أطق وداع زاهر وأنا أعتلي درجة الحافلة خلف أمي، لم أستطع النظر في عينيه، فقط أمسكت أصابعه وشددت عليهم، وسمعته يقول:

- «بأمان الله.. لاحقينكم إن شاء الله.»

جلست أمي بجانب الممر في الحافلة، وجلستُ بجانب النافذة، أتنفس بعمق جدًا ما بقي لي من هواء في حلب، وأنفث كل القهر المكبوت.. اكتمل العدد: كلنا بذات الهيئة، شحوب وذهول، خطوط الدمع لا تنقطع عن الوجوه البائسة، وهمهمات الدعاء والشكوى لله تنطلق بين الحين والآخر، صرخات الأولاد تتعالى أيضًا، والجدّات لا يملكن إلا النحيب.. لتأتيك من عمق الفؤاد أنّات المتعبين.

أيادي الرجال من الخارج تلوح لنا وأنا لم أقوَ على احتمال المشهد..

تحرّكت الحافلة.. لحظتها فقط، نشجتُ كما لم أفعل من قبل.. صرخت بملء صوتي:

«سامحينا يا حلب.. وراجعين»

«سامحينا يا حلب وراجعين»

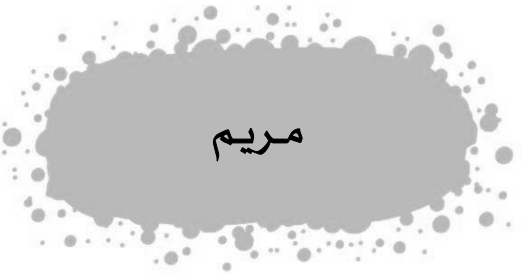
مـريـم

أمسكتْ آخر قطعة نقدية في يدها متوجّهة إلى الخبّاز لتشتري شيئًا يعين أطفالها ليوم، ربما يومين، ستشتري كيس خبز، لا داعي اليوم لأي شيء آخر معه.. ضحكت من سخرية الفكرة، فهي تعلم يقينًا أنها لا تملك شيئًا آخر.

لكن الماء المغلي مع الملح وقليلاً من الخبز والعظام التي استطاعت جمعها أمس من سلة المهملات في الشارع القريب؛ ستجعل من هذا الطعام طبقًا فخمًا يكفي أولادها ليومين:

- لا داعي لأن آكل أنا.. ربما يكفيهم ثلاثة أيام إذا لم آكل

أكملتْ طريقها وهي تدسّ القطعة في جيب عباءتها المقطعة، تتأكد من سلامة الجيب بتمرير أصابعها على كل زواياه قبل أن تترك أصابعها القطعة النقدية هناك..

وتتحسسها من خارج الجيب للتأكد أنها في مأمن، كانت أصابع قدميها تلمس إسفلت الشارع مع كل خطوة، حذاؤها المتهالك منذ الشتاء الماضي لم تستطع تغييره رغم الفتحة الكبيرة في أوله. لا تزال تذكر عندما وقفت في انتظار دورها بين اللاجئين على باب إحدى الجمعيات لتحصل على كسوة شتاء، وقبل أن يصل الدور لها بخمس أمهات وحكاية؛ اعتذر الموظف لنفاد الكمية، بقيتْ بعدها هي وأطفالها بذات الملابس والأحذية لعام آخر.

كانت مريم شابة سورية لم تكد تصل لمنتصف الثلاثينيات من عمرها حتى اختبرتها الحياة بقسوة لا مثيل لها، زوجها شهيد مظاهرة في البلد، وقريتها نزحت، وكان عليها أن تواجه المصير ذاته معهم بثلاثة أطفال أكبرهم لم يكمل السادسة..

عظمها الدقيق، وقامتها القصيرة جعلت من يراها يظن أنها ابنة الثانوية ما زالت تدرس.. وهي تبتسم لهذه الملاطفات التي تسمعها أحيانًا رغم الهمّ الذي يسكن التفاصيل الدقيقة.

عيونها الواسعة، وعظام الوجنتين البارزة مع شفاه دقيقة مكتنزة دفئًا رغم البرد.. وذقن ملفوف يبرز قليلًا يجعلها تبدو أكثر جمالًا.

تحثّ الخطى للخباز قبل أن يستيقظ أطفالها الذين تركتهم نيامًا..

تحدّث نفسها..

«لم يبق الكثير، آخذ المنعطف يسارًا وأكون عند الخباز»

وحين استدارت لتأخذ المنعطف يسارًا.. أحسّتْ أن شيئاً سحبها بقوة.. ويد امتدّتْ لتغطّي فمها!

كان وحشًا بهيئة بشر، ضخم الملامح والجثة، أمسكها بقوة من ذراعيها.. وهمس «كوني لطيفة وسأكون لطيفًا» كانت لكنته تشبه لكنة أبناء بلدها..

لم تحتمل مريم هذه التتانة، وضربت بقدمها قدمه فصفعها على وجهها، شعرت بلزوجة الدمّ في فمها من أثر الصفعة وقوتها وسرعة استدارة الوجه، أدارت وجهها بتحدّ له وبصقت ما تجمع في وجهها من دماء.. ضربته بين قدميه بركبتها وتركته لنوبة الألم وركضت..

حين وصلت إلى دكان الخباز كان تلهث بأنفاس لا تكاد تسعفها لتبقى على قيد الحياة..

لم تكن المرة الأولى التي تتعرض فيها للتحرش أو لمحاولة الابتزاز، ولم تكن المرة الأولى أيضاً التي تتلقّى فيها الضربات لتدافع عن شرفها.

بعد أن التقطت أنفاسها، أدخلت يدها في جيبها لتخرج القطعة النقدية لكنها لم تجد شيئًا! هلع دبّ في أوصالها.. أدخلت الأصابع جيدًا، بحثت بأمل أكبر في الجيب الصغير.. لا شيء!

يبدو أن قطعة النقود سقطتْ أثناء هربها..

«اللعين سيتسبّب في موت أطفالي!»

قالتها وهي تضرب حجراً أمام قدمها.

لم تجرؤ على الدخول للخباز، فقد هدّدها المرة الماضية بطلب الشرطة إن أتتْ دون نقود.

لملمت الخيبة بأطراف العباءة وعادت تجرّ الوجع جرًّا كأنها خرجت الآن من هناك.. كأن زوجها استشهد اللحظة.

لم تكن تبكي.. لم تكن تنوح.. كان الذهول يتملّكها.. ماذا عساها تفعل؟ أين تذهب؟

عادتّ لزاوية الكراج الذي تسكنه مع أطفالها وتتقاسمه مع عائلة، كان الكراج صغيرًا يتّسع لسيّارة واحدة، رضي صاحب المنزل أن يؤجّره للعائلة التي كانت تدفع له إيجارًا كل شهر، وكانت مريم مشرّدة مع أطفالها في الشوارع بعد رحلة النزوح. حين رآها أحد أفراد العائلة التي تسكن الكراج؛ تبنّاها مع أطفالها الثلاث ليقسموا لهم قسمًا صغيرًا يكفيهم للنوم..

حين وصلتْ، كان ابنها الكبير قد استيقظ، شدّها من يدها وهمس:

- ماما أنا جائع.

لم تدر بم تجبه، عانقتْه كثيرًا.. قالت

- بنيّ أنت كبير الآن.. سأترك إخوتك عندك وأعود بعد قليل بكثير من الطعام.. ثق بي وعد لفراشك الآن.

أعادتْه لفراشه وغطّأته وعانقت الطفلين الآخرين..

وخرجتْ، كان الجوع قد تمكّن منها هي أيضاً.. فمنذ يومين لم تأكل سوى فتاتاً، وكل ما كانت تحصل عليه من القمامة تطعمه لأطفالها..

اقتربت من أول صندوق قمامة، أخذت كسرة خبز كانت قد سقطت على الأرض، أكلتْها دون أن تشعر بطعمها، فقط أرادت ما يعينها لتصل لهدفها..

ومضت هائمة على غير هدى.. تطوي الشوارع بقدميها.. تعدّ الخيبات في حياتها.. لا تدري أين المسير.

لا تريد العودة دون طعام، فيبكي أطفالها ويخرج صاحب المنزل ليعطيها من طعامهم ويحرجها بابتسامته كما يفعل أغلب الأوقات..

بقيت هائمة على وجهها.. أصابعها تذوب من المشي.. شعرت بشيء لزج بين الأصابع.. توقفت لترى.. كان الدم قد بدأ يخرج من أصابعها إثر احتكاكهم بالإسفلت مع ساعات المشي التي لم تشعر بها وهي تمر.

قرّرت التوجّه لمفوضية الأمم المتحدة، تعلم أنها أخذت معونات هذا الشهر، لكنها اضطرت لبيعها من أجل تأمين دواء الربو لابنها..

- سأحاول.. لربما أشفقوا علي وأعطوني مرة أخرى.

حين وصلت كان التعب قد استهلك حياتها حتى الرمق الأخير، وكان طابور الانتظار مخيفاً جدًا، الكثير هنا، كلهم يحملون المعاناة نفسها، يبحثون عن سبل حياة.

انتظرت كما الجميع في الدور الذي لا يتحرك.. بعد زمن لا أحد يعلم مداه خرج الموظف واعتذر عن تسليم معونات اليوم، وطلب منهم العودة في اليوم التالي.

خائرة القوى عادت.. لا تقوى على شيء.. حملتْ بضع كسرات خبزٍ رأتها في الشارع، لتعين أطفالها للغد فقط، ويكون كل شيء بخير.

حين وصلتْ الكراج كان أطفالها الثلاثة ينتظرونها، كانوا هادئين على عكس ما توقّعت، وبعض الأرزّ والخبز وُضِع في صحن بجانب الفراش، سألتْ ابنها فأخبرها أنّ صاحب المنزل أتى هنا وأطعمهم وترك لها هذا الصحن.

قضت بقية اليوم مع أطفالها.. تلعب معهم تارة، تهدهدهم تارة، وتحكي لهم القصص تارة أخرى، وحين نام الليل لم تنم، وبقيت تصلّي وتدعو بالفرج.

مع الفجر انطلقت مرة أخرى، تريد أن تصل مبكرًا قبل أن يصبح طابور الانتظار طويلًا، تحث الخطى بسرعة، تجاهد أنفاسها، وحين وصلتْ كانت الشمس قد سبقتها إلى هناك، وعشرة آخرين اصطفوا قبلها..

عزّت نفسها أن الوقت سيمضي سريعًا وأنهم عشرة فقط، ووقفت تنتظر طويلاً هذه المرة، حتى انتصف النهار..

لم يتحرك الطابور، لم ينقص الرقم، لم توزّع المساعدات، بدأت تفقد الأمل، سيتكرر مشهد الأمس، تذكرت الأطفال

صاحب المنزل

الخباز

مذلة السؤال

سلات المهملات

الرجل الذي حاول الاعتداء عليها

الدم بين أصابعها

صرخت فجأة:

- حرام عليكم

استدار الجميع على صوتها..

- حرام عليكم سنموت جوعًا

حاول من حولها تهدئتها بدأت تصيح بهستريا وتضرب وجهها، تهيل رمل الشارع عليها، تجمع حولها الواقفون، عبارات المواساة تسبقهم..

لم تكن ترى أو تسمع شيئاً، لمحت من بعيد أحدا يشعل سيجارته..

صرخت..

- «يا نعيش بكرامة يا نموت»

وذهبت إليه لتسحب القداحة دون سابق إنذار، وفي لحظة كانت عباءتها تشتعل!

العباءة المهترئة تلتهب، روحها لم تكن تحترق، لكنه بعض الألم في الجسد.. بدت الروح خفيفة في هذا اللهب الأحمر.. ورائحة احتراق الجسد تحلها حيث تركت أجساد المدينة تحترق..

اقترب منها الذين كان يقفون حولها وقبل أن يحاول أحد إنقاذها كانت مريم تتهاوى بكامل أمومتها أمام مبنى الأمم المتحدة.. وصوتها من بين الصرخات يأتي..

«أطفالي يموتون حرقًا بالجوع.. أطفالي يموتون حرقًا بالجوع»

7 دقائق

اتَّصل..

- ألو مرحبا
- أهلين
- انطلق السكود، ومعنا سبع دقائق من الحياة.. أو أن نمضي لحلم جديد.

ضحكت وقالت:

- للمرة الخامسة خلال يومين تعيد نفس العبارة، أبقى متوترة طوال الدقائق السبعة، ثم نعود للضحك.
- أشعر أن هذه المرة مختلفة (قالها مدافعاً).

تنهّدت قائلة:

- سأتماشى مع أفكارك كما كل مرة.. وبعد أن يمضي الوقت سأقول مثل كل مرة: توقف عن انتظار الموت!

سكت قليلاً ثم قال:

- إن كان عمري أطول من الدقائق السبعة، سآخذك إلى البندقية.
- لماذا البندقية تحديداً؟
- مدينة العشّاق

- ماذا إن اخترت أن أبقى؟
- امم سنصل لحل وسط بيننا، أشهر لكِ هنا، وأشهر لي هناك..

نظر لساعته دون أن ينبس ببنت شفة، كانت الدقيقة الثانية قد شارفت على الانتهاء..

- سأنام وأنتِ تقرئين لي درويش، أو ماركيز، أو أي شيء تختارينه.
- لا لا، أنت من سيقرأ، سأستمتع بسماعك فقط..
- أنا سأغني لكِ كل صباح، سأسمعك فيروز، وصباح، ولينا، وأم كلثوم بصوتي.
- وسأنسى القهوة على النار ثم ننتبه على صوت فورانها، وأقطع غناءك لأقول: «أنت السبب.. ستنظف الفرن»
- سأصطنع الغضب وأقول لا شأن لي.. كنت أغني.. لماذا لم تنتبهي
- سأخرج من المطبخ غاضبة وسأحرمك القهوة!
- سأترصّدك عند الباب أباغتك بقبلة، أسحبك من يدك للمطبخ وأهمس: «قهوتي أنتِ»
- سأعدّ لك قهوة أخرى..

- وأنا أنظف الغاز.
- ستكون لنا مكتبة، كبيرة كما الحلم
- سأنام بين الكتب...
- وماذا عن حنين؟
- سريرها سيكون أيضاً بين الكتب.. أريدها أن تكون كاتبة كأبيها.
- سيصيبها جنون الكتاب، وستجد مجنوناً آخر يحبّها
- هل هو اتهام لي بشيء؟
- بالجنون فقط
- يالكِ من محتالة!

ضحكا.. غزاهما الصمت.. انتهت الدقيقة الخامسة

فكّ الساعة عن معصمه ورماها.. أغمض عينيه وتابع:

- سنسافر أيضاً..
- إلى أين؟
- إلى كلّ مكان يضم الحياة
- لا داعي للسفر إذن
- لم؟

- كلّ مكان أنت فيه سيضم الحياة
- وماذا إذا كنت عصبياً، نزقاً، لا أحب شيئا؟
- لا شيء سيتغير عزيزي.. فقط سأصبح مثلك
- لالا، أرجوك.. قالها ضاحكاً سينفجر البيت وتتطاير الكتب!
- أتعلم؟ أريد أن أزور الأندلس.. أن أمشي في حارات غرناطة.. أن أتأمل قرطبة.. أن تكون إسبانيا وجهة ثانية لنا..
- في كل مكان سنكتب نصاً يمثل الحلم
- ربما يكون الحلم أكبر من..

انقطع الاتصال.. للحظة ظنّ أنه خرج من الدنيا، بقي ساكنًا للحظاتٍ.. بدأ يتحسّس رأسه، يديه، كلّ ما حوله.. لم يتغيّر شيء «ما زلتُ على قيد الحياة»، هرع إلى ساعته الملقاة نظر إليها، ضحك وهو يعاود الاتصال، الدقائق السبع اللعينة مرّت بسلام.. لم تكن هناك تغطية.. أعاد الاتصال مرّات.. لا فائدة، لم تسعفه الشبكة.

بعد قليلٍ أتاه الخبر.. لم يقتله السكود.. لكنه قتلها!

حبة رمـان

الأحلام تسبقك على قارعة الطريق حين يكون الصباح هادئًا، كنت أفكر في كل الأشياء التي لا يسمح لي صوت الطائرات عادة بالتفكير بها.

كالسفر الذي يُعتبر ضربًا من جنونٍ في ظلّ المدينة المحاصرة، كنت أؤمن جدًا أنه لا توجد خيارات مستحيلة، وإن بدت كذلك..

الحصار لن يمنعني من الوصول للمالديف لقضاء شهرين أو ثلاثة بعد خمس سنوات من الحصار!

سأقوم بعمل إعادة ضبط لعقلي، كما أفعل مع هاتفي تمامًا، وأمسح هذه السنوات بكلّ ما فيها!

الأمر ليس مقتصرًا على الموت الذي أصبح يمشي معنا جنبًا إلى جنب.. الأمر متعلّق بكلّ التفاصيل التي ارتبطت تمامًا بالحرب..

كنت أحيّي كلّ من يمرّ بجانبي بإيماءة سريعة وأكمل، لا أحد يستغرب.. أضع سماعات الهاتف في أذني رغم أني لا أسمع شيئًا؛ لكنها حيلة أستخدمها حين لا أريد أن يقترب أحد منّي أو يقاطعني، أو يضيع وقتي.. أُوهم كلّ من حولي أنني أستمع لشيء..

وهكذا أعبر من جانب الجميع بسلام.

حين خرجتُ من المنزل كان مزاجي في أسوأ حالاته.. لكن الهدوء الذي أهدته لي السماء جعلني أعيد ترتيب السعادة في عقلي بحيث يقفز الحلم سريعًا على الواجهة الأمامية دونما حقائق أو خوف.

بيدي حقيبة العمل، وأوراق أعددتها للأيتام الذين أمشي في الطريق إليهم، معي أيضًا عقدان مع العمر يقفان بجانبي.. ونصف عقد يمشي أمامي كطفل صغير يشبُّ على مهل..

لم يكن على عقدي الثالث أن يطول كثيرًا، فقامتي التي لا تتجاوز 165 سم تجعل كلّ شيء مثاليًا في نظري.!

حين وصلتُ مقرّ جمعية الأيتام، اضطررتُ لنزع السّماعة والسلام على المعلمات الأخريات..

نزلت للصالة في القبو.. وتوجّهت للمكان الذي سأكون فيه مع الأطفال. راجعت جدولي بسرعة، وأعددتُ الأدوات لكلّ نشاط، قمتُ بتشغيل أغنية (حبّة رمّان) وأنا أنتظر قدومهم.

جلستُ أكمل الحلم فيما كانت الكلمات تتناثر حولي:

«إيمانٌ بالغد فينا.. يجلو شُؤم ليالينا

يمسح دمعاً.. يرسم بسماً.. للأجيال ينادينا»..

بدأ الأطفال بالتوافد بعد وصول الحافلة التي تقلّهم.. خفضت صوت الأغنية قليلًا وقمت لتحيتهم..

أتاني (ريان) على عجل، لا بدّ أن لديه حكاية قبل أن يصل أصدقاؤه

- «آنسة آنسة.. لو تعرفي مبارح شو صار..»
- «شو صار ريان؟»
- «استشهد ابن عمي»
- «يبي الله يرحمو..!»
- «كان واقف عند راس الحارة، ما شفنا فجأة إلا نزل صاروخ..»

وقبل أن يكمل ريان، بدأتُ أسمع صوت الطائرة في السماء.. لوهلة ظننت أن حديث ريان جعلني أشعر بما حدث معهم، لكن في الحقيقة توقّفنا أنا وريان عن الحديث حين سمعنا صوت ارتطام أو صاروخ.. وارتجف المقر!!

كان صوت الغارة قويًا جدًا وقريبًا جدًا.. وكلمات الأغنية تتسرب من بين الارتطام.

«غدًا نلقى..

لذا نبقى

بها نرقى..»

كل الخطر الذي نعيشه يكون مضاعفًا حين تكون مسؤولاً عن أطفال في مكان..

رأيت المديرة قادمة بسرعة..

- «شوفي؟ شو صاير؟»
- «بدت الغارات.. قريبة علينا كتير»
- «كل الأولاد وصلوا؟»
- «اي»

لا أدري أأفرح أنهم وصلوا كلهم حتى لا يبقى أحد بالطريق مع الغارات، أم يزداد رعبي من فكرة تجمعهم في مكان واحد قرب الغارات!

كنا نعرف التعليمات جيدًا في هذه الحالة.. علينا تشتيت انتباه الأطفال عن القصف قدر المستطاع.

حاولنا أن يبدو كل شيء طبيعي لكن القلوب كانت تنخلع مع ارتطام كلّ صاروخ!

وأنا أحاول بدأ توزيع الأولاد؛ سمعت ريّاناً يقول لوسيم :

- «بتتوقع وين تكون هي الغارة؟»

- «والله ما بعرف.. يمكن جهة دكان أبو عبدو لأنو قريب كتير..»

قفز قلبي من احتمالات الطفولة.. المكان الذي توقّعه وسيم قرب عمل أخي.. أيكون حقيقة؟ أيكون الآن هناك؟ ماذا إن وصل مبكرًا على العمل.. ماذا إن..

أمسكت رأسي بيدي أحاول قتل الاحتمالات قبل أن تقتلني.. وكلمات الأغنية تكمل معي «أرواح تجمعهم طول زمان.. حبة رمان»

تجمّع لديّ خمسة عشر طفلًا كإخوة تماماً، اعتادوا القدوم هنا لنتقاسم الحمل والتعب واليتم أيضًا.. وكنت أنا

عقلي يحصي احتمالات الموت كثيرًا.. لكنه اليوم تجرأ فجأة

«ماذا لو كان الصاروخ التالي هنا.. وكان موت.. أ أنت جاهزة لهذه اللحظة؟!

ماذا لو كانت هذه آخر دقائق لك في الحياة؟!»

تكاثرت الأفكار عليّ وعجز عقلي عن الاحتمال..

كيف عليّ التصرف؟

لحظتها قفز في رأسي قول لسيّدنا علي رضي الله عنه: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»

بل ربّما بعد دقيقة..

ليست مصادفة أن أتذكر هذه العبارة في هذا الموقف..

لم تكن الخيارات كثيرة ولم يكن الوقت مساندًا أبدًا.

قلت للأطفال «سنصلي ركعتيْ صلاة الخوف، وندعو لأنفسنا وأهلنا وكل من نحبّهم ونستودع الله ما نملك ثم نبدأ»

صليتُ بالأطفال ركعتين.. وبكيت كطفلة في سجودي دون أن أنطق.. كان قلبي يحدّث الله عن هول ما أعيشه في هذه اللحظات..

ثم مسحتُ الدمع مع السلام الأخير.

وجلست.. طلبت من الأطفال أن يجلسوا على شكل الحلقة.. أمسكينا بأيدي بعضنا وقلت لهم:

- سنلعب أولًا لعبة الضحك..
- (ضحى في استغراب): ضحك مع القصف؟
- نعم.. سنرى من صوته أعلى؛ ضحكاتنا أم صوت الغارات..
- (مهاب): كيف سنضحك؟ لا يوجد شيء مضحك!
- (ريان): أنا سأقول لكم موقفا حدث معي وكان مضحكًا

بدأ ريان يقصّ الموقف بحركاته وانفعالاته، ما جعل الجميع يغرقون في الضحك.

أصبح الأطفال يتسابقون من يحكي شيئًا مضحكًا ليعلو صوت الضحكات..

كنت أضحك معهم وقلبي يدعو الله أن يغفر ويسلم.. وأن يعفو إن كانت هذه آخر لحظاتنا.. تذكّرت حديث الرسول ﷺ: «إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»

يا الله إنها قيامتنا هنا.. وبيدي أمل لا زلت أغرسه في قلوبهم! اللهم فتقبّل!!

«بين العتم وفوق سجون

.. رغم القهر وضيق صدور..

نمضي عملًا..

نحيي أملاً..

ننثر أرض الشام زهور»

أكملنا الجلسة ببعض التمارين النفسية، عادة ما نعدّها لأوقات الأزمات كهذا الوقت تمامًا.. ثم تابعت ببعض الفقرات من البرنامج المعدّ..

وبين ضحك ودمع وخوف وأمان وبكاء متقطع وشهقات خفية وصوت الأغنية الذي رافقنا طول الجلسة؛ هدأ القصف..

وأودعنا الأطفال في الحافلة نوصلهم بسرعة لأهلهم قبل أن تعود الغارات من جديد..

في الخامسة كنت أغلق باب المنزل.. أعود لعتبة الحياة بعد اقتراب الموت جدًا..

الاتصالات لا تزال مقطوعة لكن الإنترنت ولمفارقات الحياة هنا يعمل في المنزل.. سمعتُ صوت تتابع الرسائل، أخرجتُ الهاتف:

- «أخوك استشهد!»

كفاح

حين ودعها صباحًا كانت تردد عليه آيات الرحمن..

نظر لعينيها وهو يهمّ بالخروج:

- أكنت تقرئين عليه هذه الآيات كل يوم؟

أجابت بعفوية:

- بالتأكيد بنيّ..

قال بسرعة:

- ويوم استشهاده؟

غاصت الكلمات في ذاكرتها، وخرج المشهد أمامها على عجل كأنه الآن، كأن السنوات الثلاث لم تكن كفيلة بإخفاء تفاصيله.

رأته أمامها يقف كما يقف ابنها، يحادثها قبل الخروج للعمل، وتقرأ عليه آيات الرحمن، وتردّد: «في حفظ الله..» فيجيب: «الشهداء دومًا في حفظ الله..»

تعيدها لواقعها برودة يد ابنها التي امتدّت لتمسح الدمع الحاضر في كل حين..

- «انتبهي على حالك وعلى أخواتي...»

ثم قبّل يدها ثانيةً وخرج.. كان الدمع قد داهمه هو الآخر، وهو الذي لم يسمح لنفسه بالانهيار منذ استشهاده، لم يكن الوقت يحتمل الانكسارات حينها، وكان عليه أن يكون سند عائلته التي انهار جزؤها الأعظم باستشهاد والده.. لم تشفع له سنواته الثلاث عشرة ليكون المصاب أخف وطأة عليه أو يكون الحمل أقل ثِقَلًا..

كان يدرك تمامًا أنه تحت الحصار لا معنى لسنوات عمرك ما دمت كبير العائلة، لا معنى لأن تكون طفلًا ما دامت الحرب تطحن الأخضر واليابس، وتقتص من أرواح سكان المدينة ما تشاء متى تشاء، فهم المعادلة جيدًا، وأتقن حفظها.. حرب وحصار واستشهاد أبٍ، يعني أن يركب بسنواته الثلاث عشرة على نابض الزمن، ويقفز من طفولته ليصبح رجلًا مكان رجل، وأبًا لإخوته، وسندًا لأمه التي ترك الخبز على ليلها مطرًا لا ينقطع.. لم يكن يصعب على من ينظر إليها أن يعرف أن معارك الأرق وصخب الوجع قد تركت فلولها سوادًا تحت العينين لم يزل أثره منذ ثلاث سنوات..

ما بين طفل ورجل تهاوت الأحلام تباعًا، وبات الأمل أن يكبر ليلحق بالأشياء التي فاتته عنوة، يجري بعربة الذرة في الأحياء ليجمع ما يسدّ رمق عائلته، يمر على الرفاق في الساحات ويشاركهم اللعب مشاهدة من خلف عربته، فيما نظراته تجوب الطرقات.

كان (كفاح) يودّع طفولته بخطّ شارب دقيق خفيف بدأ بالارتسام فوق شفتيه منذ بلغ السادسة عشر، لكنّ ابتسامة الوجه لا تزال طفولية بالكامل، وعيناه تخبّئان تفاصيل الحكاية.

مرّ الوقت سريعًا بطيئًا منذ استشهاد والده، يتذكر التفاصيل على دقّتها، ويتذكّر جيدًا كيف اضطر بعد سنتين من استشهاده أن يدخل في معركة الحقوق ويخرج منها خاسرًا، تاركًا حق التعليم ليضمن لعائلته حق الحياة! ويرمي بوقته وجهده وجسده بكلّيّته للعمل، لم تعد عربة الذرة تسدّ الرمق، ولم يُكسر حصار المدينة بعد.. ولا أمل في الأفق منذ احتلت الطائرات سماء المدينة قصفًا وإجرامًا.

كان الخروج للعمل كلّ يومٍ مع قصف مستمر، أشبه بمغامرة مرعبة على من يسمع تفاصيلها، لكنه اعتادها حدَّ اللاشعور.. يمشي بهدوء رغم سماعه صوت الطائرات في السماء، يسلّم على المارّين، ويساعد الأصدقاء، ثم يمضي الوقت في العمل ويعود مساءً ليكرّر الحكاية كما كل يوم..

في ذلك اليوم، كان وجهه مستكينًا، فذكرى والده التي أتته على عجل وهو يحيّي أمه في الصباح سيطرت على ملامح الطريق، عاد طفلا فجأة وهو يتذكر أحلامه التي كان يربّيها على عيني والده، ضحكاتهما حين يتسابقان خلف الكرة، وكثير من التفاصيل التي أجبرتْ الابتسامة على الارتسام فوق الشفاه..

- كفاح.. كفاح

التفت على صوت يناديه..

- «ها نعم»
- «تعال ساعدني»

تحرّك بسرعة باتجاه (فؤاد) الذي كان يحمل أغراضًا يريد إيصالها للعائلة.

لاحظ فؤاد صديق كفاح وابن جيرانه الهدوءَ الذي كسا صديقه، وشعر أن ثمة ما يشغله..

- كفاح.. ما بك؟

صمت كفاح قليلًا.. أجاب وهو يركز بصره على الأغراض التي كان يحملها:

- اشتقت له يا فؤاد

انقطع صوت كفاح بغصة خنقت الكلِم، فيما شاركه فؤاد الدمع، وسيطر الصمت باتفاق مبرم مع الألم!

حين وصلا بيتَ العائلة، وضع كفاح الأغراض جانبًا وهمّ بالمضي، استوقفته يد فؤاد تربّت على كتفه:

- «كلنا اشتقنا.. الله اختارهم.. ونحن على قدر هذا الحمل والرسالة.. شو نسيت شو تعلمنا بحبات الرمان؟»

وغمزه بإحدى عينيه مع ابتسامة.

عجّل كفاح خطاه قبل أن ينفر الدمع من عينيه ببكاء علني، فوجع الأشياء التي يفقدها يزداد صخبًا في عقله، كان آخرها اضطراره لترك جلسات حبات الرمان ليكفيه الوقت للعمل المستمّر مع الغلاء المرعب الذي يزداد تزامنًا مع الحصار.

قادته قدماه للطريق فيما كان عقله يسترجع إحدى جلسات حبات الرمان عن الأقدار التي تجعلنا أكثر قوّة، ودورنا وحقنا في العيش على هذه الأرض.

لسانه كان يردد بشكل تلقائي: «اللهم قوة»

عرج على خالته على غير عادته.. شيء ما قاده ليذهب ويسلم عليها، لوَّح للعم سعيد الجالس قبالة المحل الذي يعمل فيه..

ثم غاب في مكان عمله..

دقائق مرت قبل أن يُسمع انفجار بجانب المحل، يد أبيه امتدّت لتساعده.. تشابكت ابتسامتهما وصعدا سويًا للسماء!

لم يكن الوقت كافيًا ليمرّ فؤاد ويودعه.. في (دوما) الثواني كافية لانتشال الشهداء وتكفينهم ودفنهم.. مراسم العزاء تقام لاحقًا، والوقت كل الوقت للبكاء!

.. بقي فؤاد واجمًا يسأل المارين:

- أحقًا صعد للسماء؟ أحقًا صار منهم؟!

وصدى سؤاله يصطدم بالطائرات ولا جواب، إلا مزيدٌ من القذائف والانفجارات..

إليـه: (كفاح الشالط) شهيد (حبات الرمان).. ابن الستة عشر عامًا.. الذي استشهد صبيحة يوم 28 كانون الثاني 2018 بقصف مدفعي على مدينة دوما.

حيـاة معلقة

- «شوي شوي يا بنات»

أتى صوت الأم منبهًا رهام وروان اللتان تركضان خلف بعضهما فيما ضحكاتهما تسبقهما.

- «ما بثير.. ما بثير انتي ثريعة»

قالتها روان محتجة على سير اللعبة، فسنواتها الثلاث لا تكفي لتلحق برهام التي سبقتها بعامين. توقفت روان جانبًا غاضبة، كمن يريد إنهاء اللعب.. اقتربت رهام منها محاولة إيجاد حل سريع يضمن إعادة المرح من جديد، ويبقى الجو هادئًا، فما زال اليوم بأوله، وسيكون هناك متسع للنزاع والشجار.

ابتسمت رهام وهي تمسح على كتف أختها:

- أنت اركضي، وأنا أحاول الإمساك بكِ.

ضحكت ملامح روان وهي تجري لتبدأ اللعبة من جديد، لكن لم يتطلب الأمر إلا ثواني معدودة قبل أن تصرخ رهام منتصرة:

- «مسكتك.. مسكتك»

حاولت روان الإفلات فشدتها رهام من ملابسها بشكل أكبر كمن يتمسك بشيء وارتفعت ضحكاتهما.

في تلك اللحظة ضرب صاروخ مجنون العمارة التي تقطن فيها العائلة، كزلزال سريع بـ 10 درجات اقتلع الحياة من المكان..

***

لم أكن أدري حقيقة ما يجري؛ سمعت صوت انفجار ضخم ولم أعد أرى شيئًا، الكثير من الدّخان يحيط بي، وأسمع أصوات تحطيم وتساقط للحجارة والجدران، شيء كبير ارتطم برأسي فأسقطني أرضًا وبقيت ممسكة بروان رعبًا وخوفًا..

استمرّ صوت التّكسير والدّخان يحيط بنا.. كنت أعلم أن روان قريبة مني إذ لا زلت أشعر بملابسها التي أمسكها بيدي، وأسمع صوت صراخها الذي اختلط بصراخي وكان الأقرب لي من صوت التكسير والانفجار والصراخ.

دقائق مرت أم ساعات..

لا أعرف.. حين استطعت الرؤية بعد أن تلقيت الكثير من الضربات وسقط على رأسي عدة حجارة، كنت عالقة؛ رأسي معلق في الهواء ويدي اليسرى أيضًا.. حاولت سحب جسمي لكن الألم ازداد فازداد صراخي..

كان الركام يثبت جسدي بقوة فيما بقي رأسي ويدي في الهواء.

كنت في الغرفة أقف أستعد للخروج، موعد سريع مع صديقي قبل أن أعود للغداء، كان النهار قد انتصف، والغارات لم تكن تتوقف، في لحظة كان الانفجار قريبًا جدًا، هزة أرضية قوية ضربت المبنى، سقطت أرضًا وسقط كل ما كان واقفًا في الغرفة، صوت تحطيم وتكسير وأحجار متناثرة، وأشياء تتساقط، دخان كثيف غطى المشهد، صرخت:

- يالله.. يالله

حين استطعت الرؤية من بين الدّخان، كانت الأرض تحت قدمي لا تزال ثابتة، نفضت الأشياء العالقة على يدي وخرجت باتجاه الدّخان الكثيف أبحث عن بناتي، صرخت برعب وذعر:

- «أمينة.. داليا.. ريماس.. رهام.. روان.. تقى.. لك اسماا وينكم..»

صوت البكاء والصراخ كان منبعثًا من كل مكان، قلت محاولًا استجماع أصواتهم:

- «لا تخافوا أنا جاية.. هلأ بنطالعكم..»

أصابني الرعب، أضعت الاتجاهات، عائلتي، بناتي، زوجتي، لا أرى منهم أحدًا!

أنقاض في كل مكان، ذعر وصراخ وعويل..

اتجهت للطرف المدمر كليًا من المبنى.. هناك رأيت صغيرتي؛ رهام، وروان.

روان خارج الأنقاض معلقة في الهواء على كومة الحجارة التي تتساقط بين الحين والآخر، أما رهام فكانت عالقة تحت الركام، يدها اليسرى ورأسها محررين فقط، نظرت بفزع:

- «رهام روان.. أنا هون لا تخافوا بابا.. جاية طالعكون.. يا ربي دخيلك.. يالله يالله»

***

كان صوت روان لا ينقطع عويل وبكاء، التفت للجهة اليمنى كانت بجانبي، وجهها مرعب كمن خرج من القبر، تشبه الصور التي كنت أرى أبي يشاهدها وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» كنت أسأله: «ماذا حدث؟» فيجيب: «الكلاب عم يقصفوا الأطفال، شوفي كيف عم يطالعوهم من تحت الأنقاض».

لم أكن أفهم كيف يتم دهن الوجه بالتراب والسواد والرعب والدماء والبكاء دفعة واحدة.. لكنني حين رأيت وجه روان فهمت.. صرخت.. بكيت لا أعرف ما فعلته..

نظرت للأسفل كان المكان مرتفعًا.. وكنت أخاف الارتفاعات.

يصلني صوت أبي وهو يناديني، أحاول سحب جسمي فأشعر بألم كبير فأزداد بكاءً.

حولي أصوات تكسير وحفر وصراخ وبكاء وإسعاف وتكبيرات وأشياء لا تنقطع، نظرت للأسفل فارتجفت خوفًا.. أتذكر حين وقفت مرة على نافذة منزلنا، وكدت أن أسقط كنت أشعر ببرودة غريبة تمر من أقدامي وأنا أتأرجح في الهواء، في لحظة وجدتي في حضن أمي عانقتني وهمست:

- لا تقتربي من النافذة مرة أخرى..

أغمضت عيني لينتهي هذا الخوف.. فتحتها.. لم يتغير شيء.. رأيت أمي من بعيد.. صرخت

- «ماما.. والله ما قربت على الشباك.. ليش راح أوقع»

صوت أبي يأتيني أيضًا:

- «لا تخافوا جاييكم أنا».

يقف أبي على جهة المبنى الذي انهارت بعض أجزائه.. وأنا وروان معلقتان في الجزء المدمر تماماً..

نظرت نظرة أخرى للأسفل، رجال كثيرون متجمعون يلوّحون يصرخون، لا أدري لم شعرت حينها أنه حلم مزعج..

كنت كلما رأيت حلمًا مزعجًا أغمضت عيني، وهمست باسم أمي ثلاث مرات فينتهي الكابوس

حاولت.. أغمضت عيني.. همست باسم أمي ثلاثًا.. فتحت ما زال كل شيء كما هو..

أعدتها مرة أخرى.. لم يتغير شيء.

كررتها ثالثة.. صرخت باسم أمي.

فتحت عيني لمحت طيفها في السماء، صرخت بصوت أعلى:

- «ماما استني أنا جاية»

وَقَفَت..

***

نظرت للأسفل كان المشهد مرعبًا، شقتي التي في الطابق الثالث معلقة في الهواء على شكل ركام يتساقط بين الحين والآخر، صغيرتاي معلقتان مع الحجارة، تحتهما هاوية تنتظرهما، وأنا أقف أحاول إنقاذهما.

حاولت الاقتراب منهما فتدحرجت الحجارة ككرات مجنونة نحوهما تمامًا، خفت.. تراجعت.. صرخت بصوت أعلى بالرجال الواقفين في الأسفل:

- «ساعدونا.. يالله ساعدنا»

مددت يدي لروان:

- «بابا روان تعي»

مددت جسمي محاولًا الوصول إليها:

- «بابا روان.. تعي تعي أنا هون لا تخافي تعي لعندي»

روان لا ينقطع بكاؤها وصرخاتها، أشير لها وأنا أمدّ جسمي أكثر:

- «بابا روان.. ليكيني تعي لا تخافي»

***

روان بشكلها المفزع وبكائها الذي لا يتوقف بجانبي.. لم تكن عالقة مثلي نظرت إليها.

- «روان بابا هنيك.. بتقدري تزحفي لعندو؟»

بقيت تبكي.. أكملت:

- «روان روحي لعند بابا..»

تحركت روان.. خطوة واحدة.. خانها الرّكام وانزلق.. فانزلقت معه..

وبدون تفكير كانت ذراعي الوحيدة الخارجة من تحت الركام تمتدّ وتمسك بروان..

غابت كل الأصوات عني، وبقي صوت أبي الذي يصرخ بجنون:

- «يالله ساعدوهم.. يالله يالله.. لا توقعوا يا بنات.. أنا جاية»

***

بدأت روان تستجيب لي، وتتحرك باتجاهي، الرعب سيد الموقف وأنا أنظر للهاوية التي ستزحف عليها ابنتي، ليتني كنت مكانكما!

- «يلا بابا.. يلا تعي»

خطوة واحدة زحفتها روان، لينهار الركام الذي تزحف عليه وتهوي، صرخت صرخة شقت السماء:

- «لاااااا بنتيييي»

أغمضت عيني من هول المشهد، وفتحتها بسرعة، لأجد روان معلقة بيد رهام، صغيرتي رهام تحمي أختها، تمدّ يدها الوحيدة المحررة وتمسك أختها كحزام أمان يمنع السّقوط، صرخت:

- «يالله.. ساعدونا يا شباب، البنات معلقين بالهوا، ساعدونا.»

نظرت للبنتين كان البكاء لا يتوقف منهما:

- «بابا لا تخافوا لا توقعوا.. أنا جاية..»

صارت صرخاتي كمجنون فقد عقله، كنت أحاول فقط الوصول، العجز يقطّعني، كلما حاولت الارتكاز على حجر تدحرج وانزلق وعدت مرة أخرى، ينتابني الخوف من حركة الحجارة فتنهار كومة الحجارة التي تسند رهام وروان وتسقطا..

جنون الفكرة جعلني أحاول وأعود وأحاول وأصرخ وأجن..

- رهاااام.. رواااان.. يالله ياللله.. ساعدناا ساعدهم يالله..

***

كان صوت أبي يهدئ خوفي رغم صراخه، يعطيني الأمان رغم القصف.. كان أبي الأمان الحقيقي لكل أصوات القصف التي لا تهدأ حولنا.. كلما سمعنا صوتًا نقفز لحضنه أنا وروان ونختبئ في صدره.. أسمعه يسمّي بالرّحمن ويتلو علينا آيات القرآن.. كنت أعلم أن من يمسك بحضن أبيه لا يخاف.. أردت أبي تلك اللّحظة

صرخت:

- بابا..

كان أبي يبكي ويصرخ، لم أره هكذا من قبل.. يقفز يحاول يمدّ يده.. يتسلق الركام فتهوي أجزاء فيعود..

بدأت أفقد الشعور بجسمي المثبّت تحت الرّكام.. ويدي الممتدة الممسكة بروان تتصلّب..

ثقيلة أنت يا روان.. أخاف أن أفلت.. أصابعي ضعيفة

روان لم تعد تبكي.. صمتت.. بقي بكائي بسبب الألم..

من بين الصرخات قلت:

- «لا تخافي بابا جاية.. هنيك»

أشير بعيني.. يدي الثانية عالقة أريدها أن تراه!

بدأت أصابعي بالارتخاء تذكرت أمي وهي تقول:

- «كل وحدة فيكم تنتبه على الأصغر منها»

وكلما رأتني ألعب مع روان تقول مفاخرة أمام أخواتي:

- «برافو رهام.. أكتر حدا بينتبه على روان»

فأستمر بفعلي بفرح ونشوة...

تلك اللحظة رأيت أمي تبتسم.. تشدّ على يدي فتزداد يدي تمسكًا بروان

لم أكن أشعر بشيء.. فقط أريد من ينهي المشهد، أريد أن يتوقف الألم، أن يمسكوا بروان، أن أرتاح قليلًا..

ولم تطل أمنيتي.. سمعها الركام فانهار في لحظة ووجدتني وروان في الهواء نهوي..

صرخة روان المرتعبة شقت السماء، صرخت أنا أيضًا:

- «غمضي عيونك!»

كنت أخاف الاصطدام كثيرًا.. المشهد كان مرعبًا.. أنا أسقط من الأعلى.. ومعي روان.

نهوي وتحتنا الحجارة.. نهوي على أكوام من أسياخ وحجر مدمر..

***

لا أدري كم مرّ من الوقت لكن العجز كان يقطعني، أحاول أصرخ.. أولول.. أمد يدي.. أمسك رأسي.. أصرخ:

- «لك ساعدونا!!!»

أمسك رأسي بيدي كمجنون أفلت منه شيء، ماذا لو أفلتت رهام روان؟

يصيبني الاحتمال بمس كهربائي فأنتفض وأعود أحاول...

مددت يدي المرة الأخيرة، اقتربت.. لم تنهار الحجارة.. سأنجح.. بدأت بالاقتراب أكثر

وفي لحظة تسارع المشهد بحركة مفاجئة وتواطئ الركام.. فانهار الجزء الذي يحمل رهام وروان وسقطتا من الطابق الثالث لتستقبلهما كتلة حجارة وأسياخ حديد من ركام متجمع في الأرض..

لم أغمض عيني، ذهول مرعب أصابني.. خرجت مني صرخت شقت السماء! وركضت للأسفل إليها!

***

كان الأمر يسيرًا جدًا، لم أشعر بشيء فتحت عيني كانت أمي هناك تمدّ يدها لي..

اختفت الأصوات وبقي صوت أمي فقط.. عادت السماء للونها.. غاب الدخان.. اختفت الحجارة.. تلون المكان!!

ابتسمت بفرح:

- جيب روان معي؟
- «لا عطيها لبابا»

***

عانق الأب روان جاريًا بها إلى لسيارة الإسعاف.. وحلقت رهام في السماء.. طيرًا حرًا..

مهداة إلى:

روح الطفلة رهام ذات الخمس سنوات.. وأمها التي استشهدت بتاريخ (24من تموز 2019) في أريحا بمشهد جنوني، وهي تحاول إنقاذ أختها روان ذات الثلاث سنوات بعد أن ضربت طائرة حربية تابعة لنظام الأسد العمارة الذي تسكن فيه العائلة والمكونة من عدة طوابق فوق رؤوس قاطينها.

م: استشهدت روان بعد يومين من الحادثة..

خاتمـة

لم ينته الوجع بعد.. على الأرض هناك آلاف القصص التي لم تروَ ولم تحكَ ولم يعرف أبطالها بعد..

على الأرض هناك.. الوجع يطرق كل الأبواب والقلوب.. وتعجز عنه الحروف والكلمات..